

الأسواق والمراكز التجارية عند ابن جبير في رحلته

الدكتور إبراهيم بن محمد المزيني *

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه وسار على نهجه إلى يوم الدين .. أما بعد :

فإن هذه الدراسة ترصد نظرات وملامح للحياة التجارية نقلها لنا أحد الرحالة المسلمين الذين جالوا في العالم الإسلامي في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وهو الرحالة الأندلسي أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني المتوفى سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧م) وسجل دقائق رحلته في كتابه الثمين المسمى : "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" .

وقد تناول ابن جبير في رحلته تلك العديد من الجوانب السياسية والحربية والاجتماعية والعلمية ومختلف المجالات الحضارية في المدن والمراكز التي مر بها أو وقف عليها.

- * بكالوريوس في التاريخ من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٣ هـ .
- ماجستير في التاريخ من الجامعة نفسها عام ١٤٠٦ هـ .
- دكتوراه في التاريخ من الجامعة نفسها عام ١٤١٠ هـ .
- يعمل الآن أستاذاً مشاركاً في قسم التاريخ والحضارة في الجامعة نفسها .

وكان من بين هذه الموضوعات ما يمكن تسميته بالرؤية الاقتصادية لهذا الرحالة ؛ حيث وردت في ثنايا كتابه إشارات مهمة تعكس لنا عمق هذه الرؤية وشراءها .

وفي هذا المجال أورد ابن جبير العديد من المظاهر التجارية في الأسواق والمراكز التي يمر بها في عدد من المدن التي زارها أو أقام بها ؛ وهو يصف لنا الحالة التجارية في هذه الأسواق بنظرة واعية فيفرق بين المزدهر منها والكاسد ، ويمتدح بعض الأسواق ويشير إلى احتفالاتها وانتظامها ، وتوزيعها حسب السلع والصناعات . وهو في الوقت نفسه يشير إلى معاناة عديد من الأسواق وتعرضها لحالة من الكساد التجاري ، ولا يكتفي بذلك ؛ بل يقدم لنا التفسير الواقعي لهذا الأمر أو ذاك .

وكونه أمراً متعلقاً بالأسواق التجارية بصفة مباشرة تحدث ابن جبير في إشارات مهمة لأنواع السلع التجارية المتعددة ، وأسعار تلك السلع والشراء الذي تتمتع به بعض المراكز التجارية وما كان يتم فيها من حالات البيع والشراء . كما أنه يشير أحياناً إلى التعامل التجاري في عددٍ من الأسواق والمدن التي يقف عليها ، فيشير مثلاً إلى مقايضة السلع بسلع أخرى ، أو الشراء بالعملات النقدية ؛ إضافة إلى إشارات سريعة لبعض المكاييل والموازين المستخدمة في البلاد التي يمر بها وربما يقارنها بما هو معلوم في بلاده . ويصف الأسواق الموسمية التي كانت تتركز في مكة ومشاعر الحج ، ويصف ما كان يتم فيها من نشاط تجاري متنوع فيه السلع التجارية ، كما يصف الأسواق الدورية التي تعقد في الكثير من المواقع خلال يوم معين من أيام الأسبوع .

كما أن ابن جبير يورد إشارات مهمة إلى عدد من المصطلحات الاقتصادية المستخدمة في زمننا هذا ، فهو يشير إلى مصطلح التسويق ، والتخزين ، وكذا الكساد التجاري ، ويشير أيضاً إلى ظاهرة الثراء الذي كان يتمتع به بعض التجار . ولم يكتف ابن جبير بذلك ؛ بل ربما يعتمد إلى تعليل بعض المظاهر التجارية التي يصفها بشيء من التبرير أو الانتقاد . وإشارات تلك تكشف عن أهمية هذا المصدر وسبقه في رصد بعض ملامح الحياة التجارية قبل قرون من الآن .

ومن جهة أخرى ، فقد وجدنا ابن جبير يشير إلى مجموعة من المراكز والمنشآت التي كانت تؤدي الوظيفة التجارية ، التي تكثر في المدن في ذلك العصر وتكثر فيها حالات البيع والشراء فهو يصف الخانات ، التي كانت تعدُّ بمثابة نزل للمسافرين إلا أن وظيفتها تطورت بحيث صارت بمثابة أماكن لممارسة الأعمال التجارية ، وكذا القياس أو القيساريات التي كانت عبارة عن عمائر تجارية مسقوفة كانت في الغالب ذات دكاكين كل واحدة منها تختص بسلعة تجارية معينة ، وتُغلق أبوابها ليلاً ويكلف حراس بحمايتها من عمليات السطو المحتملة .

ومن هذه الإشارات وتفصيلات كثيرة ترد - بإذن الله - في ثنايا البحث يتبين لنا الجانب المهم الذي قدمه لنا ابن جبير عن النشاط التجاري في عصره في عديد من المدن والمراكز الإسلامية التي زارها ، وهو جانب تغفل كثير من المؤلفات التاريخية عن تناوله . والله الموفق وهو المستعان .

ابن جبير ورحلته :

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير الكناني

البلنسي الشاطبي ، رحالة أندلسي^(١) . ولد في بلنسية^(٢) شرق الأندلس ليلة السبت العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م^(٣) .

وسبب نسبته لبلنسية لمولده بها على أرجح الأقوال . أمّا نسبته إلى شاطبة^(٤) فعائد لإقامته بها فترة من الزمن . ويُعد والده من أعيانها وأبرز

(١) المنذري : زكي الدين أبو محمد عبد العظيم عبد القوي (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) التكملة لوفيات النقلة : تحقيق : بشار عواد معروف - ط ٢ - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١ هـ (١٩٨١م) ج ٢ / ٤٠٧ ؛ ويعد من أوائل المترجمين لابن جُبَيْر : التَّجْبِيي : القاسم بن يوسف التَّجْبِيي السبتي (ت ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩م) ، مستفاد الرحلة والاعترا ب : تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ليبيا - تونس - الدار العربية للكتاب ، ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥م) ، ص ٢٤٣ ؛ ابن الخطيب : لسان الدين (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م) الإحاطة في أخبار غرناطة : تحقيق محمد عبد الله عنان - القاهرة : الشركة المصرية للطباعة والنشر ، ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤م) ج ٢ / ٢٣٠ .

(٢) بلنسية : كورة ومدينة مشهورة بالأندلس متصلة بكورة تدمير وهي شرقي تدمير وشرقي قرطبة ، بيرة بحرية ، بينها وبين تدمير أربعة أيام ومنها إلى طرطوشة أربعة أيام أيضاً (ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م) - معجم البلدان - ط ٢ - بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤م) ج ١ / ٤٩٠) وهي إحدى قواعد الأندلس الشرقية تبعد عن البحر ثلاثة أيام ، وهي قاعدة المنطقة التي تحمل اسمها . استردها المرابطون من القشتاليين سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢م) واستمرت في أيدي المسلمين إلى أن سقطت نهائياً سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨م) ، وتعد الآن من كبرى المدن الأسبانية . (العزري : أحمد بن عمر بن أنس (ت ٤٧٨ هـ) نصوص من كتاب توصيع الأخبار وتنوع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلي جميع الممالك : جمع وتحقيق عبدالعزيز الأهواني ، مدريد : معهد الدراسات الإسلامية ١٩٦٥م ، ص ١٧) .

(٣) المنذري ، المصدر نفسه ، ٤٠٧/٢ ، ابن الخطيب ، الإحاطة ، ٢٣٩/٢ ، المقرئ ، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (١٠٤١ هـ / ١٦٣١م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : تحقيق إحسان عباس - بيروت : دار صادر ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨م) ج ٢ / ٣٨٢ .

(٤) شاطبة : مدينة مرتفعة في شرقي الأندلس من أعمال بلنسية على بعد ٥٦ كم إلى الجنوب الغربي منها وهي مدينة قديمة اشتهرت بصناعة الورق الذي ينسب إليها ، سقطت بيد ملك أرجوان سنة ٦٣٨ هـ تخرج منها جمع من العلماء الأعلام (ياقوت ، المعجم ، ٣٠٩/٣ ؛ ابن الكردبوس ، أبو مروان عبد الملك التوزري (توفي أواخر القرن السادس الهجري) تاريخ الأندلس : تحقيق أحمد مختار العبادي - مدريد : معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٧١م ، ص ٩٦ .

كتّابها . وسلك ابن جبير نهج والده في ذلك ثم سكن غرناطة ^(١) .
نشأ ابن جبير في كنف أبيه الذي أعده لتقليد المناصب . فتلقى العلم عن أبيه وعلماء عصره بشاطبة وعني بالأدب فبرع فيه وبرز في صناعة الكتابة .
وتنقل ابن جبير في مطلع حياته في عدد من المدن الأندلسية والأفريقية ، فقطن بلسنية وشاطبة وغرناطة وسبتة ^(٢) وفاس ^(٣) وتقلب في المناصب الكتابية .
ويُعد أحد كتّاب دولة الموحدين حكام الأندلس والمغرب ، وتمتع بمكانة عالية لديهم لسعة علمه وقدرته على نظم الشعر والنثر ^(٤) .

(١) عواطف محمد يوسف نواب ، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين - دراسة تحليلية مقارنة - . الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٧ هـ (١٩٩٦م) ، ص ٩٨ ، وفيه ترجمة وافية عن ابن جبير من مصادرها الأولية .
وغرناطة : مدينة من أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس ، وأحصنها بينها وبين البيرة أربعة فراسخ وقرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخاً (ياقوت ، المعجم ، ١٩٥/٤) . وكانت غرناطة قاعدة لكورة البيرة في القرن الخامس الهجري عندما اتخذها بنو زيري قاعدة لدولتهم في عصر ملوك الطوائف ،
وابتداءً من منتصف القرن السابع الهجري صارت قاعدة لدولة بني الأحمر التي عمرت حوالي قرنين ونصف ، وكانت غرناطة آخر مدينة سقطت بيد النصارى وذلك سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩١م) (محمد عبدالله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح الرابطي ، ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م ، ص ١٢٤) .

(٢) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس وهي مدينة حصينة بينها وبين فاس عشرة أيام (ياقوت ، المعجم ، ١٨٢/٣) .
(٣) فاس : مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر وهي حاضرة البحر وهي أشهر مدينة قبل أن تخطط مراکش يقول عنها ياقوت : "ليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها إلا غرناطة بالأندلس" وذكر لها قلعة حصينة ، وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم والأعلام (المعجم ، ٢٣٠/٤ - ٢٣١) .
(٤) ابن القاضي ، أبو العباس أحمد بن القاضي المكناسي الشهير بابن القاضي (كان حياً في حوالي منتصف القرن السابع الهجري) جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام في مدينة فاس ، الرباط ، دار المنصور للطباعة والوراقة (١٩٧٣م) ، ج ١/٢٧٨ ، وهو من المصادر الأولية التي ترجمت لابن جبير . وقد ذهب عبدالقدوس الأنصاري إلى القول أن مشايخ ابن جبير بلغوا أربعة وعشرين شيخاً .
(مع ابن جبير في رحلته - القاهرة : المطبعة العربية الحديثة ١٩٦ هـ ، ١٩٧٦م ، ص ٣٩) .

ويعد ابن جبير أحد علماء الأندلس في الفقه والحديث ، وكانت له مشاركة في الآداب . وصفه لسان الدين بن الخطيب في كتابه "الإحاطة" بأنه "كان أديباً بارعاً ، شاعراً مجيداً ، سري النفس ، كريم الأخلاق" ولكن شهرته لم تقم إلا على كتابه هذا المعروف "برحلة ابن جبير" ، الذي وضعه بعد أن قام برحلات ثلاث ، أهمها رحلته الأولى التي استغرقت أكثر من سنتين ، بدأها يوم الخميس في الثامن من شهر شوال سنة ٥٧٨هـ الموافق اليوم الثالث من شهر شباط فبراير سنة ١١٨٣م بخروجه من غرناطة وقد ركب البحر في سفينة وقصد الإسكندرية وتنقل في أنحاء مصر ثم اتجه إلى عيذاب ^(١) ومنها إلى الحجاز ؛ حيث قام بتأدية فريضة الحج ، ومكث مدة ستة أشهر اتجه بعدها إلى العراق ، ثم إلى بلاد الشام حيث كان الصراع بين المسلمين والصليبيين على أشده . واختتم رحلته بالعودة إلى بلاده في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٥٨١هـ . الموافق اليوم الخامس والعشرين من شهر نيسان أبريل سنة ١١٨٥م بالرجوع إلى غرناطة . وقد وصف في هذه الرحلة كل ما مرّ به من مدن وما شاهد من عجائب البلدان وغرائب المشاهد ويدائع المصانع ، والأحوال السياسية والاجتماعية ، وعني عناية خاصة بوصف النواحي الدينية والمساجد والمشاهد وقبور الصحابة ومناسك الحج ، ومجالس الوعظ والمستشفيات والمارستانات ، ووصف كذلك الكنائس والمعابد والقلاع والعواصف البحرية ، وما كابده المسافرون من ضيق وذعر ، وذكر الحروب التي كانت دائرة في الشرق بين المسلمين والصليبيين ، وما كان عليه الأهالي مسلمون ونصارى من علاقات

(١) وعيذاب : يقول عنها ياقوت : إنها بلدة على ضفة بحر القلزم ، مرسى للمراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد (المعجم ، ١٧١/٤) .

خسنة خلال تلك الحروب . ووصفه لكلّ ذلك دقيق مسهب يدلّ على دقّة ملاحظته وسعة علمه ^(١) .

وابن جبير قويّ العاطفة الدينية ، يختم كل كلام بالدعاء إلى الله تعالى والتوكّل عليه جلّ جلاله ، وهذا العاطفة المتّقدة دفعته إلى إرسال الأدعية للمدن التي مرّ بها ، فمنها ما يدعو لها " يحرسها الله ، وعمرها الله ، وحماها الله " وما شابه ذلك ، أو " أعادها الله " إذا كانت مما خرج من يد المسلمين إلى أيدي الفرنجة ، ومنها ما يدعو عليها " يدمرها الله " إذا كانت تحت سلطان الفرنجة ^(٢) .

وقد أقام في آخر رحلة سافر بها إلى مصر بالإسكندرية يحدث الناس إلى أن توفّي -رحمه الله- بها في السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م . وقد بلغ من العمر أربعة وسبعين عاماً ^(٣) .

ورحلته هذه كتاب نفيس في بابيه لا غنية عنه للمؤرخين والجغرافيين ، وكلّ من أراد الاطلاع على أحوال تلك الحقبة . وقد اهتمّ به المستشرقون فترجم القسم المختص منه بصقلية إلى الفرنسية وطبع سنة ١٨٤٦م ، وطبع كلّه لأول مرة في ليدن سنة ١٨٥٢م مع مقدّمة للمستشرق رايّت ، وأعيد طبعه هنالك أيضاً في سنة ١٩٠٧م وفي صدره ترجمة لمؤلّفه ^(٤) .

وقد كتب هذه الرحلة على شكل مذكرات يومية استخدم فيها التاريخين

(١) ابن جُبَيْر : أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانيّ الأندلسيّ (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) . رحلة ابن جبير ، بيروت ، دار صادر ، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) / مقدمة الناشر ، ص ٥ - ٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦ .

(٣) المنذري : المصدر السابق ، ج ٢/ ٤٠٧ .

(٤) ابن جُبَيْر ، المرجع نفسه ، مقدمة الناشر ، ص ٦ .

الهجري والميلادي، وعني بتسجيل الجوانب الدينية والعقائدية وكذا الاجتماعية بأسلوب يتدفق بالحيوية والسلاسة^(١).

ويذكر كراتشكوفسكي أن هذه الرحلة التي يسميها "رحلة الكناني" تعدُّ من الناحية الفنية ذروة ما بلغه غط الرحلة في الأدب العربي ، وأن أسلوبه يمتاز بالحيوية وسهولة التعبير وأنه يكثّر لجوؤه إلى السجع الذي يعالجه بحيوية وسهولة تعبير ، ويختتم كراتشكوفسكي حديثه بقوله : "فهذا مصنف رفيع الأسلوب يختتم بجدارة حلقة الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر"^(٢).

وتعد هذه الرحلة - بحق - من أفضل نماذج رحلات المغاربة لأصالتها، وصدقها ، وبساطة أسلوبها . ولما كانت على شكل مذكرات يومية ؛ فإن المعلومات التي تأتي بها تتبع خط الرحلة ، وأهم ما يميزها الملاحظة الدقيقة لكثير من مظاهر الحياة ، والمقارنة بين ما يراه ويجد له نظيراً في موطنه^(٣).

الأسواق والمراكز التجارية في الرحلة :

تكشف رحلة ابن جبير عن وجود ما يمكن وصفه "برؤية اقتصادية" لذلك الرحالة الأندلسي . وهي رؤية يمكن تسجيلها عن طريق اللوحات والمشاهدات التي صورها ابن جبير عن الحركة التجارية ؛ حيث أشار إشارات مهمة للعديد

(١) محمد مؤنس عوض : الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية - القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ص ٢٨٥ .

(٢) أغناطيوس كراتشكوفسكي . تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، القسم الأول: نقله إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم - القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٣هـ / (١٩٦٣م) ، ص ٣٠١ .

(٣) نوال محمد عبدالله . العمران في الشرق العربي في القرن السادس الهجري : قراءة في رحلة ابن جبير. بحث ضمن بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول ، المجلد الثالث ، مركز البحوث ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص ٣٧٥ .

من مظاهر النشاط التجاري في عدد من المدن والمواقع التي زارها أو أقام بها ، وذلك بوصفه للأسواق والمراكز التجارية بأنواعها وما كان يعرض فيها من سلع ، وما يتم فيها من حالات البيع والشراء ، وأساليب التعامل التجاري ؛ إضافة إلى حديثه عن العلاقات والطرق التجارية ، وبعض المظاهر التجارية التي التقطها من خلال وقوفه على حالات البيع والشراء في الأسواق التي وقف عليها . وهذه الإشارات وإن جاءت في بعض الأحيان بصورة عرضية ولم تكن مفصلة على نحو يمكن من خلاله عكس هذه الرؤية بصورة أعمق ؛ إلا أنه يمكن من خلالها رسم صورة للحركة التجارية وفق الموضوعات التالية :

الأسواق التجارية وأنواعها :

عرّف ابن منظور السوق بأنه : موضع البياعات والذي يعني : المكان الذي يتم فيه التعامل التجاري ، والجمع أسواق ^(١) . وهو الموضع الذي تجلب إليه السلع للبيع والشراء ، والسوق من الألفاظ التي يستوي فيها المذكر والمؤنث ، والسوقية السوق الصغير ، ويقال تسوق القوم أي باعوا واشتروا .

والسوق من الألفاظ التي وردت في التنزيل الحكيم في موضعين من سورة الفرقان في صيغة الجمع قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [سورة الفرقان/٧] وقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [سورة الفرقان/ ٢٠] .

وقد عرف العرب الأسواق في جاهليتهم متأثرين بعاملين : الأول : المواسم الدينية . والثاني : الاشتغال بالتجارة . أما عن المواسم الدينية فأهمها

(١) ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) . لسان العرب - القاهرة : دار المعارف (د.ت) . ٢١٥٤/٣ .

موسم الحج إلى مكة وقبل أدائهم هذا المنسك كانوا يجتمعون في مكان بين الطائف ونحلة يعرف بعكاظ يقيمون فيه سوقاً أصبحت أشهر أسواق العرب حينئذ وهي سوق عكاظ وإلى جانب هذه السوق كانت هناك أسواق أخرى ترتبط بموسم الحج فكان منها سوق ذي مجاز وسوق مجنة . أما أسواق التجارة فكان عرب الجاهلية يقيمونها خلال أشهر السنة وينتقلون من إحداها إلى الأخرى^(١) . وكانت التجارة الداخلية تتركز في مثل هذه الأسواق التي تعدّ مركز الحياة الاقتصادية في الحجاز وبخاصة أنها تعقد في فترة قبل الحج ، وهي قريبة من مكة فمن أراد الحج سهل عليه الجمع بين الغرضين ؛ حيث كانت تعرض فيها السلع على اختلاف أنواعها . وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام وشهدت نشاطاً بارزاً في حركة البيع والشراء في العصر الأموي وبخاصة في بدايته^(٢) . وقد اعتمد قيام هذه الأسواق على عاملين أساسيين هما : نشاط التجارة الداخلية والخارجية ، ثم نشاط الصناعات المحلية ، أما التجارة الداخلية فهي تجارة حاصلات ومنتجات الريف إلى المدن الكبيرة كالغلال والزيت وما إليها ، أما التجارة الخارجية فهي الركيزة المهمة التي نشطت عليها الحياة في الثغور وبخاصة كالבصرة والموصل وحلب والإسكندرية وأسوان وغيرها من موانئ المغرب والأندلس ، ثم من مراكز القوافل في الصحراء الأفريقية مثل تمبكتو . وتميزت الأسواق التي اعتمدت على التجارة الخارجية بقيام الخانات والقياسر أو القيساريات .

(١) أحمد عطية . القاموس الإسلامي ، ج ٣ ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة : ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) ، ص ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ .

(٢) عبدالله بن محمد السيف . الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي - الرياض ، ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) ، ص ٩٨ - ١٠٠ .

أما الأسواق التي تعتمد على الصناعات المحلية فتكون في العواصم الكبرى ؛ حيث يتجمع أرباب الحرفة الواحدة في مكان متجاور يضم شارعاً أو أكثر تقوم فيه دكاكين البيع أو محال تجمع بين التصنيع والتجارة كالحراطين والسروجية ، وتعرف السوق باسم الحرفة أو السلعة الشائعة فيقال سوق السلاح وسوق الحدادين وغيرها ، وكان لكل حرفة شيخ يعرف بها ، من ذلك شيخ الصاغة وشيخ الدباغين والخبازين وغيرهم ، ويساعد الشيخ المحتسب في أعمال الرقابة على السوق ، والشيخ هو الذي يجيز الاشتغال بالحرفة .
وقد اشتهرت العواصم الإسلامية إبَّان القرون الوسطى بأسواقها الحرفية ؛ حيث ذكر المقرئ في خطه اسم (٣٧) سوقاً في القاهرة وحدها غير القياسر والسويقات والخانات والوكالات والفنادق ^(١) .

وقد ظهر عند ابن جُبَيْر استخدام كلمة "السوق" بكثرة لتدل على أحد ركائز المدينة من خلال عرضه للمدن التي حلَّ بها وقد ارتبط هذا السوق في الغالب بالجامع الرئيس للمدينة واتخذ أشكالاً متعددة في المدن التي زارها ، وقد تميزت معظم هذه الأسواق بسقفها بالخشب ، كما أن القيساريات كانت أحد معالمها البارزة وبخاصة في بلاد الشام ، كما ظهر توزيع هذه الأسواق بين الحرف المختلفة، فاختصت كل صناعة بشارع من الشوارع أو بدهليز من دهاليز الجامع .
أما القرى فكانت لا تخلو من نشاط تجاري عن طريق تخصيص أيام معلومة للأسواق تخدم بها هذه القرية والمنطقة المحيطة بها ^(٢) .

ومن خلال عرض ابن جُبَيْر للمدن التي توقف بها أو مرَّ بها في أقطار

(١) أحمد عطية ، المرجع نفسه ، ص ٥٦٩ - ٥٧٠ .

(٢) نوال محمد عبدالله ، مرجع سابق ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

المشرق الإسلامي - مصر - الحجاز - العراق - الشام ، تبين أن هذه المدن كانت تشترك كلها في وجود مجموعة من المؤسسات التي تمثل ركائز في تكوين المدينة ، ومنها السوق التجاري .

وحديث ابن جُبَيْر عن الأسواق في أي مدينة أو موقع يمرّ به إنما هو في واقع الأمر حديث عن الحياة التجارية في هذا الموقع ، فقد كان يعتمد إلى تسمية بعض الأسواق وأشهر المهن السائدة بها والتبادل والعلاقات التجارية بين هذه المدينة وغيرها من المدن الأخرى .

ويمكن من خلال ما عرضه ابن جُبَيْر عن هذه الأسواق تمييز ثلاثة أنواع منها على النحو التالي :

الأسواق الثابتة في المدن والقرى :

الأسواق الثابتة في أي مدينة أو موقع من المواقع هو في حقيقة الأمر لا يعدُّ ظاهرة اقتصادية فحسب ؛ بل هو ظاهرة إنسانية حضارية تشمل المكان المشتمل على مجموعة الحوانيت والدكاكين ، والإنسان الفاعل لهذا التجمع (الباعة والمشترون) وكذا السلع المعروضة ، وأسعارها ؛ إضافة إلى ما يمكن لحظه في هذا السوق أو ذاك من مظاهر تجارية لافتة للنظر . ومن هذا المنطلق جاء وصف ابن جُبَيْر لكثير من الأسواق التي مرَّ بها وفق التالي :

كانت بداية وصفه للأسواق بوصف أسواق الإسكندرية بأنها في غاية الاحتفال^(١) . والاحتفال كلمة ترد بكثرة في هذا الرحلة وبخاصة في وصف الأسواق وتعني الازدحام أو النشاط .

(٢) الرحلة ، ص ١٤ .

ثم إنه وصف إحدى قرى النيل يقال لها "برمه" ^(١) فيقول : "وهي قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق" ^(٢) .

ويقول عن موضع قليوب : إنه على ستة أميال من القاهرة وإن فيه أسواقاً جميلة ^(٣) . كما قال عن مدينة قوص ^(٤) بمصر : إنها "حفيلة الأسواق متسعة المرافق" ^(٥) .

وضمن أسواق مكة يشير ابن جبير إلى سوق بين الصفا والمروة يصفها بأنها "حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية ، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام ، وحوانيت الباعة يميناً وشمالاً وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البازين ^(٦) والعطارين ، فهم عند باب بني شيبه تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها" ^(٧) .

وفي موقع على الطريق إلى الكوفة يقال له "قَيْد" ^(٨) وهو حصن كبير

(١) مرّ بها ياقوت الحموي ، وصفها بأنها بلدة ذات أسواق في كورة الغربية بأرض مصر في طريق الإسكندرية من الفسطاط (ياقوت ، المعجم جـ ١/٤٠٣) .

(٢) الرحلة ، ص ١٨ .

(٣) الرحلة ، ص ١٨ .

(٤) وقوص مدينة كبيرة واسعة ، وهي قصبة صعيد مصر ، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً ، وأهلها أرباب ثروة واسعة وهي محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من أهلها (ياقوت ، المعجم ، ٤/٤١٣) .

(٥) الرحلة ، ص ٤٠ .

(٦) البزاز : البز الثياب والبزاز بائع البز وحرفته البزاة وهي بيع الثياب (ابن منظور : لسان العرب ، ٢٧٤/١) .

(٧) الرحلة ، ص ٨٥ .

(٨) قَيْدُ : يقول عنها ياقوت : إنها بلدة في نصف طريق مكة من الكوفة عامرة إلى زمنه يودع الحاج فيها أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم وهبوا لمن أودعها شيئاً من ذلك ، وهم مقوتة للحاج في مثل ذلك الموضع المنقطع ومعيشة أهلها من ادخار المعلوفة طول العام إلى أن يقدم الحاج فيبعونه عليهم ، (المعجم ، ٤/٢٨٢) وهذا يوافق كثيراً مما أورده ابن جبير عنها من وظيفة تجارية مهمة للحاج .

معمور بسكان من الأعراب في منتصف الطريق بين مكة وبغداد كانوا ينتعشون مع الحاج في التجارات والمبايعات بالأغنام والجمال ^(١) .

ومن أمثلة تعرضه للأسواق عن دمشق أنها "من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً" ^(٢) .

وفي موضع آخر يقول عن دمشق : "ولها أيضاً سوق ، يعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي" ^(٣) .

وعن الأسواق يمدح ابن جبير سوق مدينة الحلة ^(٤) بقوله : "ولهذه المدينة أسواق حافلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية" ^(٥) .

وضمن وصف الأسواق وما تحويه من مرافق يصف ابن جبير سوقاً شاهده في مدينة حران ^(٦) بقوله : "ولهذه البلدة المذكورة أسواق حافلة الانتظام ، عجيبة الترتيب مسقفة كلها بالخشب ، فلا يزال أهلها في ظل ممدود ، فتخترقها كأنك تخترق داراً كبيرة الشوارع ، قد بني عند كل ملتقى أربع سكك أسواق منها قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمفرقة لتلك السكك" ^(٧) .

(١) الرحلة ، ص ١٨٣ .

(٢) الرحلة ، ص ٢٦١ .

(٣) الرحلة ، ص ٢٦٢ .

(٤) الحلة : ذكرها ياقوت اسم لعدة مواضع والمقصود هنا : حلة بني مزيد ، وهي مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت تسمى الجامعين ، وهي في زمنه عاصمة لناحيتهما . (المعجم ، ٢/ ٢٩٤) .

(٥) الرحلة ، ص ١٨٩ .

(٦) حران : مدينة كبيرة مشهورة في إقليم الجزيرة الفراتية وهي قصبة ديار مضر وتقع بين الرقة والرّها بينها وبين الرها مسيرة يوم . (ياقوت ، المعجم ، ٢/ ٢٣٥) .

(٧) الرحلة ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

ويصف منبج^(١) وما فيها من أسواق بقوله : "وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً ، وأعالى أسواقها مسقفة وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات"^(٢) .
ويصف سوق بزاعة^(٣) (بزاعا) أنها تجمع بين المرافق السفريّة ، والمتاجر الحضريّة^(٤) .

وفي وصفه لحلب يشيد بسعة أسواقها وحسن تنظيمها وتقسيمها حسب الصناعات فيقول : "وأما البلد - يعني حلب - فموضوعه ضخم جداً ، حفيل التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق وكبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من سباط صنعة إلى سباط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشب ، فسكانها في ظلال وارفّة . فكل سوق منها تقيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً"^(٥) .
أما حماة^(٦) فقد تعرض لأسواقها وقسمها إلى أسواق عليا وأسواق سفلى

(١) منبج : مدينة واسعة ذات خيرات كثيرة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ (ياقوت : المعجم ، ٢٠٥/٥ - ٢٠٦) .

(٢) الرحلة ، ص ٢٢٣ .

(٣) بزاعة : تنطق بالضم والكسر ويقال بزاعا ، وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب وتكثر فيها العيون والمياه الجارية (ياقوت : المعجم ، ٤٠٩/١) .

(٤) الرحلة ، ص ٢٢٤ .

(٥) الرحلة ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٦) حماة : مدينة كبيرة بينها وبين حمص مسيرة يوم من جهة الجنوب وبينها وبين حلب مسيرة أربعة أيام من جهة الشمال (ياقوت : المعجم ، ٣٠٠/٢) وهي الآن مدينة مشهورة من المدن الرئيسة في سورية تقع إلى الشمال من حمص بنحو (٥١ كم) وتبعد عن دمشق نحو ٢٠٩ كم . (أكرم فؤاد الساطع . الدليل الأخضر للسياحة والآثار - سورية ، دمشق : دار الفكر ، ١٩٧٥م) ، ص ٧٥ .

وامتدح أسواقها العليا بأنها أحفل وأجمل من السفلى وأنها جامعة لجميع الصناعات والتجارات ، "وموضوعها حسن التنظيم ، بديع الترتيب والتقسيم" ^(١) .

وضمن الأسواق أشار ابن جُبَيْر إلى الحوانيت المنتظمة للعطارين وسواهم قرب الجامع الكبير في دمشق ^(٢) .

وفي مدينة مسينة ^(٣) إحدى مدن جزيرة صقلية امتدح ابن جُبَيْر أسواقها ورخص أسعارها بقوله : "هذه المدينة موسم تجار الكفار ، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار كثيرة الأرفاق برحاء الأسعار .. أسواقها نافعة حفيلة ، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة" ^(٤) وذكر أن بها أسواقاً خاصة بالمسلمين رغم قلتهم بالبلد ^(٥) .

كما امتدح أسواق المسلمين في صقلية ^(٦) بقوله : "والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها" ^(٧) .

الأسواق الموسمية :

وضمن أنواع الأسواق الواردة في رحلة ابن جُبَيْر يشير إلى الأسواق الموسمية التي كانت عامرة أيام التشريق في منى وقد امتدح نشاطها وذكر أنه

(١) الرحلة ، ص ٢٣١ .

(٢) الرحلة ، ص ٢٩ .

(٣) وسميها ياقوت مَسِينِي ، وذكر أنها بلدية على ساحل جزيرة صقلية مما يلي الروم مقابل ريو ، وهو بلد في بر القسطنطينية (المعجم ، ١٣٠ / ٥) .

(٤) الرحلة ، ص ٢٩٦ .

(٥) الرحلة ، ص ٢٩٧ .

(٦) صِقْلِيَّة : جزيرة من جزائر بحر المغرب مقابلة إفريقية وهي جزيرة خصيبة كثيرة البلدان القرى والأمصار وبها حصون وضباع كثيرة (ياقوت : المعجم ، ٤١٦ / ٣ - ٤١٧) .

(٧) الرحلة ، ص ٣٠٥ .

كان يباع فيها من الجوهر النفيس إلى أدنى الخرز إلى غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا ، ويعلل ذلك بقوله : "لأنها مجتمع أهل الآفاق" ^(١) .

الأسواق الأسبوعية :

ضمن حديث ابن جُبَيْر عن الأسواق في المواقع التي مرَّ بها يشير إلى وجود نوع من هذه الأسواق المحددة بأحد أيام الأسبوع أو بعضها ؛ وذلك فيما يمكن تسميته بالأسواق الأسبوعية ، وهذا النوع من الأسواق ينتشر في عدد من المواقع التي مرَّ بها ؛ حيث كان يُخصص لهذا الموقع يوم من أيام الأسبوع تجلب فيه مختلف البضائع ويجتمع إليه المجاورون لهذا البلد ، وكان من ضمن هذه الأسواق سوق مرَّ به في الجزيرة ^(٢) بمصر حيث وصفه بقوله : "لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يُجتمع إليها" ^(٣) .

كما كان من ضمن هذه الأسواق سوق مرَّ به بمدينة دُنَيْسِر (دنيصر) ^(٤) التي كانت محطّ القوافل المارّة بها لما تشهده هذه المدينة من تجمع تجاري خلال أيام الخميس والجمعة والسبت والأحد ، لمشاهدة سوقها الحافلة؛ حيث يجتمع لها أهل الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها ، وكانوا يسمون هذه السوق "البازار" ^(٥) .

وهذا النوع من الأسواق ينتشر كثيراً في أيامنا هذه في بعض المحافظات والمراكز في كثير من البلاد وله الصفة ذاتها التي يشير إليها ابن جُبَيْر .

(١) الرحلة ، ص ١٥٧ .

(٢) الجزيرة : بليدة في غربي فسطاط مصر قبالتها ولها كورة كبيرة واسعة وهي من أفضل كور مصر نُسب إليها جماعة من العلماء الأعلام ولها ذكر في فتوح المسلمين لمصر (ياقوت : المعجم ، ٢/ ٢٠٠) .

(٣) الرحلة ، ص ٢٩ .

(٤) ودُنَيْسِر : بلدة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردن بينهما فرسخان ، وتسمى أحياناً "قوج حصار" وهي مدينة عظيمة الأسواق (ياقوت : المعجم ، ٢/ ٤٧٨) .

(٥) الرحلة ، ص ٢١٧ .

وفي رؤيته الاقتصادية لتلك الأسواق التجارية نجده يفرق بين المزدهر منها والكاسد ؛ فإذا كان قد امتدح أسواق المدن السابقة ، ووصفها بصفة عامة على أنها مزدهرة ، إلا أنه بالنسبة لأسواق حمص ^(١) أوضح أنها تعاني من الكساد ، وذكر أنها بلا رونق ، "كاسدة لا عهد لها بنفاتها" ^(٢) . ويلحظ أن ابن جببر لم يترك الأمور هكذا دون أن يشرح السبب ، ويقدم التفسير الحقيقي لذلك الأمر ، فأوضح أن وجود أحد المعازل الصليبية الكبرى ويعني به حصن الأكراد الواقع على بعد عشرة أميال من المدينة ، وهجوم العناصر الصليبية فيه على تلك المدينة ، كل ذلك جعلها مدينة حدودية ثغرية تعاني من عدم الاستقرار الأمني وبالتالي أدى ذلك إلى حالة من الكساد التجاري ^(٣) .

إن وضع أسواق حمص بالصورة التي أوردها الرحالة بالتعليل المهم نفسه الذي قدمه ، يكشف لنا عن حقيقة مهمة ، وهي أن مناطق الاحتكاك الحربي بين المسلمين والصليبيين ، عانت من عدم الانتعاش التجاري نظراً لاستمرارية حالة الحرب ، والصدام بين الجانبين على نحو هدد التجارة ^(٤) .

ومن جهة أخرى ، وجدنا ابن جببر يشير إلى ما يمكن وصفه بالمؤسسات التجارية ، من ذلك تناوله للخانات والقيساريات التي كانت تؤدي وظيفة الأسواق التجارية في عدد من المواقع .

والخانات جمع خان ، وهو الدار التي ينزل بها التجار ، وتعرف كذلك

(١) حمص : بلد مشهور قديم ومسور في منتصف الطريق بين دمشق وحلب (ياقوت : المعجم ، ٣٠٢/٢) . وتبعد حمص اليوم عن دمشق (١٦٢ كم) شمالاً ، ص ٧٣ .

(٢) الرحلة ، ص ٢٣٢ .

(٣) الرحلة ، ص ٢٣٢ .

(٤) محمد مؤنس عوض : مرجع سابق ، ص ٢٩١ .

بالفندق أو الوكالة وقد يطلق الخان على عدة دور لنزول التجار وصياغة أموالهم ، وتقع بجوارها عادة ساحة لتحميل البضائع التي تأتي بها القوافل ، وقد نشطت إقامة الخانات والفنادق والوكائل بانتشار التجارة بين أنحاء الولايات الإسلامية لا سيما في العواصم الكبرى أو على طرق المواصلات الرئيسية بين الشرق والغرب ^(١) .

كما أن الخانات عبارة عن مبنى كبير يشتمل على مجموعة من الحوانيت الكبيرة ، والصغيرة ، ومخازن للبضائع ، ويتوسطه فنار كبير على شكل رواق مغطى من أجل أن يحفظ التجار سلعهم ويجدوا مأوى لهم ، ولدوابهم خلال ارتحالهم ، وقد عُنيت الخانات بشكل خاص بعمليات التخزين ، وهي لا توجد في المدن فقط وإنما أيضاً على امتداد الطرق التجارية ، ويوجد منها كبير الحجم والصغير ، وفق قدراتها على تخزين البضائع ^(٢) . وعلى ذلك نجد أنه أشار إلى أن حلب ، بها ربض كبير ، فيه ما لا يحصى من الخانات ، ^(٣) ويلاحظ أن تلك الأخيرة ، كانت بمثابة نزل للمسافرين وإن تطورت وظيفتها بحيث صارت بمثابة أماكن لقضاء الأعمال التجارية ^(٤) .

وهنا يجب أن نشير إلى أن كثيراً من حكام المسلمين وسلاطينهم قد اهتموا اهتماماً بالغاً ببناء الكثير من الخانات على طول الطرق التجارية التي تربط بين بلاد العراق وبلاد الشام من جهة ، ومصر والشام من جهة ، أو بين

(١) أحمد عطية . القاموس الإسلامي ، ٢٠٨/٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣١٣ .

(٣) الرحلة ، ص ٢٦١ .

(٤) الرحلة ، ص ٢٢٨ .

بلاد الشام والحجاز من جهة أخرى . وكان الهدف هو تسهيل التجارة الداخلية بين البلدان الإسلامية من ناحية وبالتالي خدمة التجارة الخارجية من ناحية أخرى . فقد اهتم كل من السلطان نورالدين محمود بن زنكي والسلطان صلاح الدين الأيوبي من بعده اهتماماً كبيراً بأمر التجارة، وحرصاً على حماية الطرق التجارية من المفسدين^(١) فأقاما كثيراً من هذه الخانات والأبراج لحماية الطرق التجارية .

وضمن هذه الخانات يشير ابن جبير إلى خان كبير جديد مرّ به في قرية تعرف بعين الرصد من بلاد الموصل وأضاف إلى أن محلات الطريق كلها خانات^(٢) .

ويشير ابن جبير إلى وجود خانات وحوانيت على مقربة من حماة يستعجل المسافر فيها حاجته إلى أن يفرغ لدخول المدينة^(٣) .

وفي حمص يشير إلى وجود خان كبير بها كأنه الحصن المشيد في وسطه صهريج كبير مملوء ماء يتسرب له تحت الأرض من عين على البعد ، فهو لا يزال ملآن . يقول : "فأرحنا بالخان المذكور إلى الظهر"^(٤) .

ويشير أيضاً إلى خان آخر في حمص بناه السلطان صلاح الدين وصفه بأنه في غاية الحسن والتحصين محكم بباب حديد أسوة بالخانات الأخرى ، وذكر أن فيه ماءً جارياً يتسرب إلى سقاية وسط الخان كأنها صهريج^(٥) .

وقد أشار ابن جبير أيضاً إلى وجود عدد كبير من الخانات في حلب نزل في

(١) علي السيد علي : العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين - القاهرة : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٤١٧ هـ (١٩٩٦ م) ، ص ٨٤ .

(٢) الرحلة ، ص ٢١٣ .

(٣) الرحلة ، ص ٢٣١ .

(٤) الرحلة ، ص ٢٣٣ .

(٥) الرحلة ، ص ٢٣٣ .

واحد منها يسمى خان أبي الشكر ، وقد وصف تلك الخانات بأنها كالقلاع امتناعاً وحصانة ، وأن أبوابها من الحديد وأنها في غاية من الحفظ والتحصين ^(١) . وبالمناسبة فإن إشارة ابن جُبَيْر تلك لوجود الخانات في عدد من المدن الشامية ترد رواية من قال: إن الخانات قد ظهرت في البلاد الإسلامية منذ عهد المماليك ^(٢) . كذلك تعرض لإحدى المنشآت التجارية الأخرى المهمة وهي القياسر أو القيساريات ، ومن المعروف أن القيساريات كانت بمثابة عمائر تجارية مسقوفة كانت في الغالب ذات دكاكين تختص بسلعة تجارية معينة وعدة أنواع من البضائع ، وكانت أبوابها تغلق ليلاً ، ويتم تعيين الحراس لها من أجل مواجهة عمليات السطو المحتملة ^(٣) . ويضيف محمد مؤنس عوض أن القيسارية عبارة عن بناء كبير تتوزع فيه الحوانيت على الجانبين ، ولذا فهي تتخذ شكل السوق ، وكلمة قيسارية هي تعريب للكلمة اللاتينية Caesares حيث كان الرومان يستعملونها مستودعاً لبضائعهم وتحتوي على السلع كافة مثل ، الطراز ، والفرش ، والفراء ، والمجوهرات ، ويتم إغلاقها ليلاً ، وتفرض عليها الحراسة من أجل مواجهة اللصوص ^(٤) .

وضمن القيساريات يبدي ابن جُبَيْر إعجابه بقيسارية التجار التي بناها

(١) الرحلة ، ص ٢٢٨ .

(٢) قال بذلك محمد خير الدين الأسدي في : موسوعة حلب المقارنة ، جامعة حلب ، ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤م) ، ج ٣ ، ٢٩٩ .

(٣) محمد مؤنس عوض ، مرجع سابق ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣١٤ . ولعل هذا المصطلح يوافق - مع تحريف بسيط - ما يطلق عليه اليوم في بلادنا اسم "قيصرية" أو "قيصريات" فهو يطابق المفهوم والمعنى إلى حد كبير ، وقد وجدت في بداياتها في مكة المكرمة ثم انتقلت إلى باقي مدن المملكة العربية السعودية الآن .

الأمير مجاهد الدين أحد الأمراء بالموصل^(١) حيث شبهها بالخان العظيم "تنغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت ، بعضها على بعض ، قد تجلى ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له . فما رأى في البلاد قيسارية تعادلها"^(٢) .

وفي وصفه لقيسارية حلب يقول : "وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً مطيفة بالجامع المكرّم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائي الرياضيّة . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، وقد اتصل السماط خزنة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرّم"^(٣) .

(١) بنى هذه القيسارية الأمير مجاهد الدين قايماز الرومي المتوفى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) وكانت من أجمل قيساريات البلاد (سعيد الديوه جي : تاريخ الموصل ، الموصل ، دار الكتب بجامعة الموصل ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ج١ ، ٤٢٨) .

ومجاهد الدين قايماز هو : أبو منصور قايماز بن عبدالله الزيني ، الملقب بمجاهد الدين الخادم ، كان عتيق زين الدين أبي سعيد بن علي بن بكّتين والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ، وهو من أهل سجستان أخذ منها صغيراً ، كانت مخايل النجابة بادية عليه ، فقدّمه معتقه وجعله أتابك أولاده بإربل ، فوُض إليه أمور إربل سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) ، كان كثير الخير والصلاح ، له عدة آثار خيرية في إربل ، وقد انتقل إلى الموصل سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) وسكن قلعتها وتولى أمور تدبيرها ، وفُوض إليه سيف الدين غازي بن مودود الحكم في سائر الموصل في ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) (أبو شامة : شهاب الدين عبدالرحمن إسماعيل المقدسي (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف (بالذيل على الروضين) ، نشر : عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية ، دار الجيل - بيروت ١٩٧٤م ، ص١٤) .

(٢) الرحلة ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) الرحلة ، ص ٢٢٧ .

ويبدي ابن جُبَيْر إعجابه بقيساريات دمشق ويصفها بحسن التنظيم وأنها "مرتفعات كأنها الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية منفردة بضبتها وأغلاقها الجيدة" (١) .

وفي هذا الصدد أشار إلى قياسر دمشق ، وذكر أنها مرتفعة مثبتة بأبواب حديدية الصنع ، ومن إعجابه بها وصفها بأن أبوابها "كأبواب القصور" (٢) .

المراكز التجارية :

وما له اتصال مباشر بهذه الأسواق ؛ بل يمكن أن يعدّ إحدى صورها الحيّة عند ابن جُبَيْر ، هي تلك المراكز التجارية أو المدن والمواقع التي ركّز في وصفها وما كان يتم فيها من حالات البيع والشراء وحركة التصدير والاستيراد منها وإليها . وكان أول ما حظي بالحديث الوافر من هذه المراكز هي مدينة قوص التي وصفها بأنها حافلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق (٣) ويعلل ذلك لكثرة الصادرات والواردات إليها من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها ملتقى الجميع ومحط الرحال ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم (٤) .

ثم أشار ابن جُبَيْر إلى مدينة عيذاب التي تعد أحد المراسي المهمة على البحر الأحمر (٥) ، فقد وصلها في يوم السبت الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٩هـ (الخامس والعشرين من شهر يونيو سنة ١١٨٣م) ووصفها بقوله :

(١) الرحلة ، ص ٢٦١ .

(٢) الرحلة ، ص ٢٦١ .

(٣) الرحلة ، ص ٤٠ .

(٤) الرحلة ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٥) يسميه ابن جُبَيْر بحر القلزم وبحر عيذاب ، وبحر فرعون ، وبحر جدة .

"وهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة أكثر بيوتها الأخصاص ، وفيها الآن بناء مستحدث بالجص . وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحطّ فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة ، وهي في صحراء لا نبات فيها ، ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب ، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير ولا سيما مع الحاج ؛ لأن لهم على كل حمل طعام يحملونه ضريبة معلومة خفيفة المؤنة بالإضافة إلى الوظائف المكوسية ^(١) التي كانت قبل اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها ، ولهم أيضاً من المرافق من الحاج إكراء الجلاب منها وهي المراكب فيجتمع لهم من ذلك مال كثير في حملهم إلى جدة وردهم وقت انقضائهم من أداء الفريضة ، وما من أهلها ذوي اليسار إلا من له الجلبة والجلبتان ، فهي تعود عليهم برزق واسع" ^(٢) .

ولعل السبب الأساس في تحول قوافل الحج والتجارة من الطريق المألوف الذي يربط القاهرة بشمال الحجاز عن طريق شبه جزيرة سيناء ، إلى الصعيد حتى قوص ثم إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر هو العنف الذي تعرض له بعض أجزاء الطريق المألوف السابق ^(٣) .

أما عن مكة المركز الأهم في الرحلة ، فقد أفرد ابن جُبَيْر عنواناً لذكر "ماخصّ الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات" أورد بداية أثر دعوة نبينا إبراهيم عليه السلام لهذا البلد بقوله تعالى حاكياً عن خليله : ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا﴾ [إبراهيم : ٣٧]

(١) والوظائف المكوسية : مقصود بها المكس أو الجباية وهي الضرائب التي أخذها الماكسون من بانعي السلع . (ابن منظور ، لسان العرب ، ٦/٤٢٤٨) .

(٢) الرحلة ، ص ٤٥ .

(٣) نوال محمد عبدالله ، مرجع سابق ، ص ٣٨٠ .

وقوله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَفَّ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة القصص / ٥٧] يقول ابن جبّير : "فبرهان ذلك فيها ظاهر متّصل إلى يوم القيامة ؛ وذلك أنّ أفئدة الناس تهوي إليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاخصة . فالطريق إليها ملّتقى الصادر والوارد ممّن بلغتة الدعوة المباركة . والثمرات تُجْبَى إليها من كل مكان ؛ فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر .

ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوّان الموسم ففيه مُجتمع أهل المشرق والمغرب فيبيع فيها في يوم واحد ، زيادة على ما يتبعه ، من الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت ، وسائر الأحجار ، ومن أنواع الطيب : كالمسك ، والكافور والعنبر والعود ؛ والعقاقير الهندية ، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة ، إلى الأمتعة العراقية واليمانية ، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية ، والبضائع المغربية ، إلى ما لا ينحصر ولا ينضب ، ما لو فُرّق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية ، كل ذلك في ثمانية أيّام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها . فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدّة الموسم . فهذه بركة لا خفاء بها وآية من آياتها التي خصّها الله بها" ^(١) .

كما واصل ابن جبّير حديثه عن أصناف الفواكه وأنواع اللبن ، والعسل ، والزبيب التي وجدها في مكة وقد ذكر أن الزبيب يجلب إليها من اليمن عن

(١) الرحلة ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

طريق القبائل المعروفة السرو ^(١) ، وأن بعض الفواكه تجلب إليها من الطائف ، ويزداد إعجابه بتنوع هذه الأرزاق حتى إنه قال : "وأما الأرزاق وسائر الطيبات فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر البلاد حتى حللنا بهذه البلدة المباركة فآلفيناها تغصّ بالنعم والفواكه" ^(٢) وأخذ يعدد أصنافها ^(٣) .

بعض المظاهر التجارية :

وضمن رؤية ابن جبير التجارية لعدد من المواقع التي مرّ بها فجدّه يسجّل كلّ ما يلفت نظره مما يتعلق بأمر التجارة من أمور مستحسنة أو مستنكرة لا يخفي شعوره في عرضها بما تستحقه من عبارات مناسبة من ذلك فجدّه يسجّل استنكاره على موقع من مواقع البيع في مكة كان يتم داخل المسجد الحرام وذلك بقوله : "أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام - نزهة الله وشرفه - سوقاً عظيمة تباع فيه من الدقيق إلى العقيق ، ومن البرّ إلى الدرّ ، إلى غير ذلك من السلع" ^(٤) ويعلق بعد ذلك بقوله "وفي ذلك من النهي الشرعي ما هو معلوم والله غالب على أمره ، لا إله سواه" ^(٥) .

كما يسجّل ابن جبير استنكاره على بيع الذهب في بغداد بالآجل ^(٦) .

(١) قبائل السرو : من قبائل العرب لهم قرى كثيرة تصل إلى أكثر من مائتي قرية وهم أهل جبال السراة من قبائل غامد وزهران وغيرها (عبد القدوس الأنصاري ، مرجع سابق ، ص ١٩٧) .

(٢) الرحلة ، ص ٩٧ .

(٣) الرحلة ، ص ٩٧ - ٩٩ .

(٤) الرحلة ، ص ١٦٠ .

(٥) الرحلة ، ص ١٦٠ .

(٦) الرحلة ، ص ١٩٤ .

ولم يكتف بذكر حال الأسواق وأساليب المبايعة فيها وعرض السلع وأسعارها ؛ بل تعتمد إلى انتقاد ما يستنكره من مشاهداته في هذه الأسواق .
وضمن حديث ابن جُبَيْر عن النشاط الاقتصادي تجده يتحدث في بعض المواضع عن بعض الصناعات التي تشتهر بها المدينة أو الموقع الذي يمرّ به فمثلاً يشير إلى بعض الصناعات التي وقف عليها في مدينة دمشق وهو يتحدث عن الجامع الأموي فيصف سوقاً للصفايين - يقصد النحاسين - وأنه يتصل بطول جدار الجامع القبلي ، ويصف خلف هذا الشارع مواضع لصابغي الثياب ، ويسميهـم "الكـمادون" (١) .

وفي المقابل فإنه يشير في موضع آخر إلى تشجيع السلطان صلاح الدين الأيوبي للتجار في مصر بإسقاط ما كان مقرراً عليهم من مكوس وضرائب كانت تفرض على كل ما يباع ويشترى مما دقّ وجلّ (٢) وهذا يعكس أثره الإيجابي في النشاط التجاري في ذلك الزمن .

كما أنه يسجل في موضع آخر ما لفت نظره من ظاهرة الشراء الوافر لدى بعض تجار زمانه وما يمكن تسميته بالاحتكار التجاري لبعض المراكز التجارية فهو يشير إلى أمر تاجرين من تجار دمشق من مياسر التجار وكُبرائهم المنغمسين في الشراء ، أحدهما يعرف بنصر بن قوام ، والثاني بأبي الدرّ ياقوت مولى العطا في ، وكانت تجارتهما كلها بالساحل الإفريقي وأنه لا ذكر فيه لسواهما ، وأن لهما الأمانة من المقارضين ، "فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما ، وشأنهما في الغنى كبير وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفريقيين خطير ، وقد نصبهما

(١) الرحلة ، ص ٢٣٨ .

(٢) الرحلة ، ص ٣١ .

الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغريين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذل أموالهما في هذا السبيل" ^(١) ويؤكد ذلك المشاركة الفعلية للتجار في حياة الناس وتفاعلهم مع المجتمع في همومهم .

ومما يؤكد ظاهرة الاحتكار التجاري ذكره بصراحة أن "تجارتها كلها بهذا الساحل الإفريقي ، ولا ذكر فيه لسواهما" ^(٢) ، كما أن القوافل التجارية صادرة وواردة تحمل البضائع لحسابهما .

ومن الطبيعي أن توجد عوامل تساعد على نمو ذلك الوضع ؛ هي تتمثل في الثراء العريض وتوافر رأس المال الضخم للمشاركة به في العمليات التجارية الواسعة النطاق ، والتي توصف بأنها تجارة دولية ، بالإضافة إلى حماية سياسية عالية المستوى من أجل استمرار ذلك الوضع ^(٣) ، وهذا ما اعترف به ابن جبير نفسه ، إذ قرر أيضاً أمرين ، أولهما ؛ أن التاجرين المذكورين من "مياسر التجار وكبرائهم ، وأغنيائهم المنغمسين في الثراء" ^(٤) ، أما ثانيهما فهو أن "قدرهما عند أمراء المسلمين والإفريقيين خطير" ^(٥) .

والجدير بالذكر ، أن الدليل على قوة ذلك الدور الذي قام به هذان التاجران ، هو أن علاقاتهما ليست قوية بالسلطة الأيوبية القائمة فقط ؛ بل أنها أيضاً قوية بالقوى الصليبية ، وهذا أمر منطقي تماماً أن تكون صلاتهما

(١) الرحلة ، ص ٢٨١ .

(٢) الرحلة ، ص ٢٨١ .

(٣) محمد مؤنس عوض ، مرجع سابق ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٤) الرحلة ، ص ٢٨١ .

(٥) الرحلة ، ص ٢٨١ .

ممتازة ، بطرفي النشاط التجاري من أجل توفير الأجواء المناسبة لاستمرارية ذلك الدور . ويدهي أن ذلك الدعم السلطوي جاء من خلال مصالح قائمة بين السلطة ، وأولئك التجار الذين أفادوا خزائن الدولة بأموال طائلة من عوائد المكوس المفروضة ^(١) .

السلع التجارية :

ويتكرر حديث ابن جُبَيْر عن أنواع السلع التي يتداولها الناس في بعض المواقع التي مرَّ بها ، ويذكر سلعة البلد والسلع المجلوبة ، وربما يمتدح نوعاً من أنواع هذه السلع ، فقد أمتدح القمح الذي كان يجلب إلى مصر من منفلوط لطيبه ورزانة حبته ويضيف : أن التجار كانوا يصعدون في المراكب لاستجلابه ^(٢) . ويشير إلى تنوع واردات مكة من مختلف بقاع الأرض وبمختلف السلع ، فيشير إلى ما يجلب من الهند والحبشة من الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت ، وسائر الأحجار ، ومن أنواع الطيب : كالمسك ، والكافور ، والعنبر ، والعود ، والعقاقير ، وكذا الأمتعة العراقية واليمانية ، والسلع الخراسانية ، والبضائع المغربية ، ويعلق على ذلك بقوله : " ما لو فُرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة ولعمّ جميعها بالمنفعة التجارية ، كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها . فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم فهذه بركة لا خفاء بها وآية من آياتها التي خصّها الله بها " ^(٣) .

(١) محمد مؤنس عوض ، مرجع سابق ، ص ٢٩٣ .

(٢) الرحلة ، ص ٣٥ .

(٣) الرحلة ، ص ٩٧ .

ويمتدح تنوع المجلوب لسوق في الطريق المؤدية إلى العراق بموقع يقال له "الشعلبية" ^(١) ويذكر أنها سوق للبادية يسميهم العرب بقوله : "ووصل إلى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالاً ونساءً واتخذوا به سوقاً عظيماً حافلة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الإبل ، فكان يوم سوق نافقة" ^(٢) .

وقد ذكر أن قبائل السرو اليمنيين كانوا يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام ، فيجمعون بين النية في العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبيا إلى ما دونها ، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز . فتجتمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذكر . فيرغدون معاش أهل البلد والمجاورين فيه ، يتقوتون ويدخرون ، وترخص الأسعار ، وتعم المرافق . فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى . ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش ^(٣) .

النقد والتعامل التجاري :

يشير ابن جبير إلى أسلوب التعامل التجاري لدى الباعة في بعض الإشارات التي توحى إلى وجود نوعين من هذا التعامل : هما :

التعامل النقدي :

وكان النقد المتداول في كثير من المواقع التي مرّ بها ابن جبير على أساس الدنانير والدرهم ، وقد وردت إشارات عن ذلك في مواضع كثيرة من كتابه في

(١) من منازل طريق مكة من الكوفة بعد الشقوق وقبل الخزمية ينسب إليها جمع من العلماء (ياقوت ، المعجم ، ٧٨/٢ - ٧٩) .

(٢) الرحلة ، ص ١٨٤ .

(٣) الرحلة ، ص ١١٠ .

مكة ، وهو الرّحالة الوحيد الذي أشار إلى نوع النقود المستعملة في بلاد الحجاز وأشار إلى الدنانير والدرهم ، بينما أغفل ذلك الرّحالة الآخرون ^(١) . وكذلك في دمشق وغيرها من المواقع ، فأشار إلى الدنانير المصرية وقدّر الواحد منها بدينارين من الدنانير المؤمّنية الموحّدية في الأندلس ^(٢) كما قدّر سعر سوم الحنطة في مكة أربعة أصواع بدينار مؤمني ^(٣) وفي بلاد الشام يشير إلي الدينار ^(٤) وأشار بعدها إلى الدراهم ضمن المعاملات النقدية في دمشق ^(٥) كما أشار أيضاً إلى القيروط كجزء من الدينار عند حديثه عن الجزية على الرؤوس في بلاد الشام ^(٦) .

المقايضة :

كما أشار ابن جبّير إلى الأسلوب الآخر من أساليب التعامل التجاري وهو أسلوب المقايضة ^(٧) ويعني مقايضة البضائع ببضائع أخرى من نتاج البلد ، وأكد

(١) عواطف نوّاب ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ .

(٢) الرحلة ، ص ٣٠ . وهذا الدينار ينسب لعبدالمؤمن بن علي الكومي مؤسسة دولة الموحدين المؤمّنية بالمغرب وإفريقية وتونس وبعض بلاد الأندلس والذي قام بأمره محمد بن تومرت المعروف بالمهدي وتوفي سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م) (له ترجمة واسعة عند ابن خلكان ؛ شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) ؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ؛ تحقيق إحسان عباس - بيروت : دار صادر ، ١٩٧٢م ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ - ٢٤١) .

(٣) الرحلة ، ص ١٠٠ .

(٤) الرحلة ، ص ٢٣٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ .

(٥) الرحلة ، ص ٢٥٩ .

(٦) الرحلة ، ص ٢٧٥ .

(٧) المقايضة عند ابن منظور من قايض الرجل مقايضة : أي عاوضه بمتاع ، وهما قيطان كما يقال بيعان ، وقايضه مقايضة إذا أعطاه سلعة وأخذ عوضها سلعة ، والقبيض العوض والقبيض التمثيل ، ويقال : قاضه بقبيضة إذا عاذه . (لسان العرب ، ٣٧٩٥/٥) .

على ذلك في حديثه عن التعامل مع قبائل السرو اليمينيين حيث قال عنهم :
"ومن العجيب في هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم ، إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل . فأهل مكة يعدّون لهم من ذلك مع الأقنعة والملحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويباعونهم به ويُشارُونهم" (١) .

وفي موضع آخر وبطريقه من المدينة إلى العراق مرّ بموضع يقال له (سميرة)
ذكر أن الحاج يتبايعون فيه مع الأهالي فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن بشقق الحام التي كانوا يستصحبونها لمشاركة الأعراب لأنهم لا يبايعون إلا بها (٢) .
الأسعار :

كان ابن جُبَيْر يتابع أسعار السلع وتذبذباتها بين المواقع التي يمرّ بها ، وإن كان لم يسهب في إيراد الأرقام التي نستطيع بها معرفة الأسعار ، ومقارنتها بالسابق أو اللاحق . فهو غالباً ما يشير إلى ميزان السعر من ارتفاع وغلاء أو انخفاض ورخص ؛ وربما يربط ذلك بتعليل هذه الحالة أو تلك ، فبدأ ذلك بوصف أسعار السلع بمكة في ذلك العام الذي زارها وقال عنها : "وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ، ولين سعرها ، وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم . كان سوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمني ، وهي أوبتان من كيل مصر وجهاتها ، والأوبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربي" (٣) ولم يقف ابن جُبَيْر عند حد عرض الأسعار وظاهرة رخصها وإنما يجد لذلك تعليلاً

(١) الرحلة ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) الرحلة ، ص ١٨٢ . وسميرة في الأغلب يقصد به ذلك الموقع الحالي لمركز سميراء في منطقة حائل .

(٣) الرحلة ، ص ١٠٠ .

بقوله : "وهذا السعر في بلد لا صنعة فيه ولا قوام معيشة لأهله إلا بالميرة المجلوبة إليه سعر لا خفاء بيمينه وبركته على كثرة المجاورين فيها في هذا العام وانجذاب الناس إليها وترادفهم عليها" ^(١) .

وضمن حديث ابن جُبَيْر عن الصعوبات التي واجهت رحلتهم في العودة إلى بلادهم أشار إلى الغلاء الفاحش الذي كانوا يعانونه في البحر لانعدام الزاد ونفاذه فقال عن ذلك : "وحسبك أنا كنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس نقتسمه بين أربعة منّا نبُله بيسير من الماء فتبلغ به ، وكل من نزل من البلغرين ^(٢) باع فضلة زاده ، فترقّ المسلمون بابتياح ما أمكن منه على غلاته وانتهى إلى مقدار خبزة بدرهم من الخالص" ^(٣) .

وعن غلاء الأسعار أشار ابن جُبَيْر إلى مبايعة تمت بينهم وبين أهالي أحد المراسي في أثناء عودتهم إلى بلادهم في موقع أسماه "الرمّانية" ^(٤) وذلك في شراء الخبز واللحم والزيت وما كان في هذا الموقع من الأدم ، ووصف خبزهم بالغلاء على أنه ليس من البر الخالص وإنما كان خليطاً بالشعير مائلا للسواد ، "فتهافت الناس عليه على غلاته ، ولم يكن بالرخيص في سومه" ^(٥) .

وأثناء مرور ابن جُبَيْر في مدينة أطرابنش ^(٦) ضمن جزيرة صقلية امتدح

(١) الرحلة ، ص ١٠٠ .

(٢) البلغرين : لفظة أسبانية تعني الحجاج أو الزوار وهم حجاج بيت المقدس من النصارى . (الرحلة ، ص ٢٨٣ ، هامش (١) .

(٣) الرحلة ، ص ٢٩٢ .

(٤) لم أقف في المعاجم على تحديد دقيق لهذا الموقع إلا أن ابن جُبَيْر أشار إلى أكثر من جزيرة بهذا الاسم أسماها جزائر الرمانية في الطريق بين عكا ومسيينة ، (الرحلة ، ص ٢٩٠) .

(٥) الرحلة ، ص ٢٩٠ .

(٦) أطرابنش : بلدة على ساحل جزيرة صقلية ، ومنها يقُلَع إلى إفريقية (ياقوت ، المعجم ، ٢١٨/١) .

الأسعار فيها بقوله : "وهي مرفقة موافقة لرخاء السعر بها" وعلل ذلك بقوله :
"لأنها على محرث عظيم" (١) .

الأوزان والمكاييل :

وحتى تكون الصورة أوضح لأسلوب التعامل التجاري في الأسواق التي
مرّ بها ابن جُبَيْر لابد من معرفة وحدات الأوزان والمكاييل التي كانت تستخدم
في تلك الأسواق وابن جُبَيْر وإن لم يحصر لنا كافة المكاييل والموازين التي
كانت تستخدم في المواقع والمدن التي مرّ بها إلا أنه يمكن الوقوف على مجموعة
من الإشارات التي توضح أنواعاً من هذه المكاييل والموازين من خلال إشارات
عريضة أوردتها هذا الرحالة وهو يصف بعض المظاهر التجارية في الأسواق
والمراكز التي مرّ بها .

فقد أشار ابن جُبَيْر إلى الصاع باعتباره أبرز وحدات الكيل التي تكال
بها البضائع والحبوب وغيرها وقد ذكر ابن منظور أن الصاع مكيال لأهل المدينة
يأخذ أربعة أمداد ، وهو يذكّر ويؤنث (٢) وكان الصاع في بلاد الحجاز يعادل
خمسة أرطال وثلاث الرطل ويقول في ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام : "وأما
أهل الحجاز فلا اختلاف بينهم فيما أعلمه أن الصاع عندهم خمسة أرطال وثلاث
يعرفه عالمهم وجاهلهم، ويبيع في أسواقهم ، ويحمل علمه قرن عن قرن" (٣)
وكذا ورد ذكر الأوتان وهو من كيل مصر وجهاتها ، والقدر وهو من الكيل
المغربي ، وعن المكاييل في مكة يقول ابن جُبَيْر : "كان سوم الحنطة أربعة

(١) الرحلة ، ص ٣٠٨ .

(٢) لسان العرب ، ٢٥٢٦/٤ .

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) الأموال ؛ تحقيق محمد خليل هرّاس - القاهرة ،
١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) ، ص ٦٢٣ .

أصواع بدينار مؤمني وهي أويتان من كيل مصر وجهاتها . والأويتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربي ^(١) .

وضمن المكاييل أيضاً أشار ابن جُبَيْر إلى (الإردب) ^(٢) وقابله بالقفيز المستخدم في الكيل الإشبيلي كل (١٠٠٢) إردب من القمح يعادل نحو الثمانمائة قفيز ^(٣) .

وقد أشار إلى الرطل ^(٤) كأحد الأوزان المعمول بها في زمنه . وقدّر الرطل الواحد في دمشق بثلاثة أرطال من أرطال المغرب ^(٥) .

كما أشار ابن جُبَيْر إلى ظاهرة تجارية تلفت النظر ، وهي الميزان التجاري للأحمال ، وهذا الأمر وإن كان مصطلحاً حديثاً ؛ فقد ذكر ابن جُبَيْر استخدامه

(١) الرحلة ، ص ١٠٠ .

(٢) الإردب : ذكره ابن منظور بأنه مكيال ضخم لأهل مصر ، قيل يضم أربعة وعشرين صاعاً (لسان

العرب ، ١٦١٩/٣) .

(٣) الرحلة ، ص ٥٥ ، والقفيز مكيال معروف عند أهل العراق يعادل ثمانية مكاكيل ، ويقاس به أيضاً

مقدار مائة وأربعة وأربعين ذراعاً (ابن منظور : لسان العرب ، ٣٧٠١/٥) إذن هو وحدة كيل

وقياس كانت تستخدم منذ العصر الساساني في كل من بلاد فارس والعراق ، وقد أقرت الدولة

الإسلامية الناس بتداوله ، ويعادل القفيز (٣٦) صاعاً من القمح . (ابن الرفعة : أبو العباس أحمد

ابن محمد بن علي الأنصاري ، ت ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م ، الإيضاح والتبيين في معرفة المكيال والميزان؛

تحقيق محمد الخروف - مكة المكرمة ، ١٤٠٠ هـ ، ص ٧٢) .

(٤) ويذكر ابن منظور أن الرطل يوزن به ويكال وهو اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية أربعون درهماً (لسان

العرب ، ١٦٦٥/٣) .

ويساوي الرطل في مكة (١٢) أوقية كل أوقية تساوي (٤٠) درهماً أي يساوي ١,٥ كغم (فالتر

هنتس : المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها من النظام المتري ؛ ترجمة : كامل العسلي -

عمّان ١٩٧٠ م ، ص ٣٠) .

(٥) الرحلة ، ص ٢٦٢ .

في زمنه حينما أشار إلى ساحة بقوص من ديار مصر يجتمع إليها التجار أسماها
المُبْرَز يقول : إنها بقبلي البلد وإنه : "يجتمع فيه رحال الحج والتجار ، ويُشد فيه
ومنه يستقلون ويرحلون ، وفيه يُوزن ما يحتاج إلى وزنه على الجمالين" (١) .
وقد انتقد ابن جُبَيْر بعض الباعة في بغداد ، وذمهم بتطيف الموازين
والمكايل ، فقال عنهم : "ولا تقع من أهل موازينها ومكايلها إلا على من
ثبت له الويل في سورة التطفيف ، لا يبالون في ذلك بعيب" (٢) .

العلاقات والطرق التجارية :

ضمن العلاقات التجارية كشف ابن جُبَيْر عن وجود روابط تجارية مبكرة
بين الهند واليمن وعيذاب ، فوصف مجموعة من القوافل التجارية التي تمرّ
بإحدى الطرق التي سلكها في الديار المصرية ويسميه طريق العبدین وفي موضع
يقال له : "أمتان" وذكر أنه لم يستطع إحصاء القوافل الواردة والصادرة عبره
وخصّ بذلك القوافل العيذابيّة المحملة بالسلع الهندية الواصلة إلى اليمن ، ومن
اليمن إلى عيذاب . ويضيف أن أكثر بضائع هذه القوافل أحمال الفلفل فقال
عنها : "فلقد خيل إلينا لكثرتة أنه يوازي التراب قيمة" (٣) .

وتعجب ابن جُبَيْر للأمن المتوافر لهذه القوافل في هذه الطريق على الرغم
من كثرة المارّ بها ووصف ذلك الشعور بقوله : "ومن عجيب ما شاهدناه بهذه
الصحراء أنك تلتقي "بقاعة الطريق" (٤) أحمال الفلفل والقرفة وسائرهما من

(١) الرحلة ، ص ٤١ .

(٢) الرحلة ، ص ١٩٤ .

(٣) الرحلة ، ص ٤٣ .

(٤) لعل المقصود بقاعة الطريق فهو أفصح .

السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصنونة من الآفات على كثرة المارّ عليها من أطوار الناس" (١) .
ولا شك أن الأمان المتوافر في الطرق عامل مهم للنشاط التجاري في أي موقع من المواقع .

ويصف ابن جُبَيْر مدينة عيذاب بأنها إحدى المراكز التجارية المهمة في زمنه فقال عنها : "وهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة .. وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة . وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب" (٢) .

ويضيف أنّ أهلها يحصلون على قوتهم من الحجاج عن طريق فرض ضريبة معلومة عليهم إضافة إلى ما يحصلون عليه من إكراء المراكب للحجاج لنقلهم إلى جدة لأداء الحج وردهم بعد انقضاء حجهم" (٣) .

وقد ثنى المقرئ على هذه الأهمية لموقع عيذاب التجاري ووصف النشاط التجاري الذي تشهده عيذاب وصفاً موافقاً إلى حد كبير لما ذكره عنها ابن جُبَيْر فقال : "اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة شرفها الله تعالى إلا من صحراء عيذاب ، يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص ثم يركبون الإبل من قوص ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب ثم يركبون البحر في الجلاب إلى جدة ساحل مكة ، وكذا

(١) الرحلة ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) الرحلة ، ص ٤٥ .

(٣) الرحلة ، ص ٤٥ .

تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر إلى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ومنها يردون مدينة مصر ، فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج حتى إن كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها ، والقفول صاعدة وهابطة لا يعترض لها أحد إلى أن يأخذها صاحبها ، فلم تزل مسلكاً للحجاج في ذهابهم وإيابهم زيادة على مائتي سنة من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة إلى أعوام بضع وستين وستمائة" (١) .

وتشير المصادر إلى أن عيذاب في العصور الوسطى الإسلامية تعدُّ من أهم مراسي العالم ؛ حيث كان يصلها أعداد كبيرة من مراكب المسلمين بالهند والأندلس وغيرها وكان لها أثر كبير في تجارة بلاد الحجاز واليمن زيادة على أن هذا الميناء كان محطَّ قوافل الحجاج الذين يعبرون البحر الأحمر إلى جدة (٢) . وكانت عيذاب بالنسبة لهؤلاء الحجاج تمثل مركز تجمع لهم ولتجار الشرق القادمين إليها بسلع وبضائع من الحبشة واليمن وكان البحارة والتجار يفضلون الرسوَّ فيها عند قدومهم إليها أو عند رحيلهم عنها وذلك لعمق وغزارة الماء في ميناء عيذاب وخلوه من الشعاب المرجانية التي تعوق الملاحة في بعض شواطئ البحر الأحمر (٣) .

(١) المقرئزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ "الخطط المقرئزية" بيروت ، دار صادر ، (د . ت) ، ص ٢٠٢ .

(٢) سليمان عبدالغني مالكي . بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد (من منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري - الرياض : دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٣) حسنين محمد ربيع . البحر الأحمر في العصر الأيوبي ، بحث ضمن ندوة تاريخ البحر الأحمر - القاهرة : جامعة عين شمس ، (١٩٧٩م) ، ص ١٧ .

كما كشف عن علاقات تجارية وتبادل اقتصادي بين قبائل السرو اليمنية وأهل مكة أيام المواسم عن طريق جلب الميرة من الطعام وسواه وضروب الإدم والفواكه اليابسة يقول ابن جُبَيْر : "فأرغدوا البلد ، ولولاهم لكان من اتصال الجذب وغلاء السعر في جهد ومشقة ، فهم رحمة لهذا البلد الأمين" (١) .

وفي المجال الآخر ، انفرد ابن جُبَيْر بإشارة مهمة للغاية ، تعكس طبيعة ذلك العصر ، الذي شهد ما يمكن وصفه بالثورة التجارية ؛ إذ إنَّ الحروب الصليبية أدت إلى إثراء الصلات التجارية بين الشرق والغرب بصورة لم تكن موجودة بمثل ذلك الشكل من قبل ، ونتيجة طبيعية لذلك الوضع أخذت المصادر تشير إلى ضخامة حجم التعامل النقدي ، في مثل تلك المعاملات التجارية ، وظهرت بصورة واضحة رؤوس الأموال الضخمة ، وبخاصة في التعامل التجاري الدولي (٢) . وفي موضع آخر يشير ابن جُبَيْر إلى علاقات تجارية أخرى بين المسلمين والصليبيين عبر الطرق التجارية بين دمشق ومصر على الرغم من روح العداء والنزاع المستحكم بين الطرفين . ويصف تلك العلاقات وما كان يؤدي فيها من ضرائب متبادلة ، فقال في ذلك : "اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك . وتجار النصارى أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي من الأمانة على غاية . وتجار النصارى أيضاً يؤدّون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال . وأهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس في

(١) الرحلة ، ص ١٤٢ .

(٢) محمد مؤنس عوض ، مرجع سابق ، ص ٢٩٢ .

عافية ، والدنيا لمن غلب" ^(١) . ويضيف أن "من أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين" ^(٢) .

تمكيس القوافل أو المناطق الجمركية :

تمكيس القوافل : يعني الأموال التي كانت تفرض على البضائع المارة بالطرق والموانئ ، وتجبي من أصحابها كضرائب يتم فرضها من قبل المتحكمين عليها ، وربما تفرض على الحجاج وغيرهم .

وقد أشار ابن جُبَيْر في رحلته إلى بعض المناطق التي يتم فرض الضرائب فيها وهي التي أسماها مواضع "تمكيس القوافل" أو ما يمكن تسميته حديثاً بالمناطق الجمركية .

وكان أول موضع يشير إليه ابن جُبَيْر في ذلك هو عيذاب التي ذكر أنه كان يفرض على المار بها من الحجاج ضريبة معلومة ، وأنه إذا لم يُجَبَ منهم في عيذاب جُبي في جدة ، وأن مقدار هذه الضريبة كان سبعة دنانير ونصف الدينار من الدنانير المصرية : وأضاف أن من امتنع من الحجاج عن دفع هذا المكس عذَّبَ بشتى أنواع العذاب ، فكان الحجاج يلاقون من العنت الشديد في سبيل ذلك حتى أزالها عنهم السلطان صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله ^(٣) .

كما أشار إلى موضع آخر لهذا المكس وهو "حصن تبنين" ^(٤) حيث كانت

(١) الرحلة ، ص ٢٦٠ .

(٢) الرحلة ، ص ٢٧١ .

(٣) الرحلة ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٤) وتبين بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور (ياقوت ، المعجم ، ١٤/٢) ويعرف هذا الحصن في المصادر باسم "تبنين" تارة و"تورون" تارة أخرى ، وعرف باسم تبنين لإقامته فوق تل تبنين على بعد نحو ثلاثة عشر ميلاً إلى الشرق من صور أما اسم : تورون فيغلب إطلاقه في المصادر الصليبية .

تفرض ضريبة على القوافل التجارية المارة بهذا الحصن وقدرت الضريبة فيه بدينار وقيراط من الدنانير السورية على الرأس . يقول ابن جُبَيْر : "ولا اعتراض على التجار فيه لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً" ^(١) .

وذكر أن أكثر المُعترضين لهذه الضريبة هم المغاربة لموقف أخذه عليهم الصليبيون إثر وقوفهم مع نور الدين محمود بن زنكي في جهادهم ، وقد قال الصليبيون في ذلك : "إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسألمهم ولا نرزأهم شيئاً ، فلما تعرضوا لحربنا وتآلبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم" ^(٢) .

إذن فأول منطقة جمركية أو موضع تمكيس القوافل ذكره ابن جُبَيْر كان حصن تبين ، والذي يقع تقريباً في منتصف الطريق بين دمشق وعكا وكان يتبع أحد أمراء الفرنج الخاضعين لملك بيت المقدس .

ثم نراه يصف لنا منطقة جمركية أخرى داخل أهم المدن الصليبية في ذلك الحين وهي مدينة عكا التي وصلها صباح الثلاثاء العاشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ (الثامن عشر من شهر أيلول ١١٨٢ م) فيقول : "وحملنا إلى الديوان ، وهو خان مُعدّ لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الآبنوس المذهبة الحلي ، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب ، لقب

(١) الرحلة ، ص ٢٧٤ .

(٢) الرحلة ، ص ٢٧٤ .

وقع عليه لمكانة من الخطة ، وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند ، وكل ما يجبي عندهم راجع إلى الضامن وضمان هذا الديوان بمال عظيم . فأنزل التجار رجالهم به ونزلوا في أعلاه ، وطُلب رَحْل من لا سلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله فنزل حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل" (١) .

وإذا تأملنا ما جاء في وصف ابن جُبَيْر رأينا صورة مصغرة لما يحدث في كل منطقة من المناطق الجمركية فهذا الجمرك أو الديوان كما هو شائع لدى المسلمين نظراً ؛ لأن أهم مموليه كانوا من المسلمين أصحاب القوافل أو التجار وهم لا يتحدثون إلا بلغتهم العربية فقد تمت الاستعانة بموظفين نصارى يجيدون اللغة العربية .

وهذه المجموعة لها رئيس هو في الوقت نفسه الضامن وحيث إن المبلغ الذي يلتزم بدفعه الضامن كان كبيراً فإن هذا يدل دلالة واضحة على كثرة المبالغ التي كان يتم تحصيلها من القوافل التجارية التي ترد من بلاد المسلمين وتعدد تلك القوافل أو كثرتها في الوقت نفسه ، وهذا مؤشر له دلالته ويعكس لنا مدى ما كان يحصل عليه الصليبيون من موارد مالية بالغة الضخامة من التجارة التي تجتاز بلادهم .

ثم نراه بعد ذلك يعطينا صورة واضحة عن اهتمام الصليبيين بمثل تلك المراكز الجمركية وبالتجار القادمين إليها ؛ حيث تم بناء خان أعد لنزولهم ودوابهم . فقد أنزل التجار في أماكن خصصت لهم في أعلى الخان ، بينما

(١) الرحلة ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

دوابهم وأمتعتهم وبضائعهم قد تم إنزالها في أماكن مخصصة في الدور الأرضي من الخان وما لا شك فيه أنها خضعت كلها لإشراف دقيق وحراسة شديدة وعناية بالغة .

وهذا يدل بلا شك على مدى عناية السلطات الصليبية بهؤلاء التجار والعمل على راحتهم تشجيعاً لهم على كثرة التردد على مدنهم وخصوصاً وأن عملية التفتيش الجمركي وتحصيل الرسوم على السلع التي يجلبها التجار معهم كان ذلك يتم برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل كما يذكر ابن جُبَيْر^(١). كما أشار ابن جُبَيْر إلى مناطق جمركية أخرى في كل من طبرية والمراقب والداروم وغيرها^(٢) . وأخيراً فإنه يتضح لنا من خلال هذا العرض أن هذا الرحالة قد قدم بذلك التناول جانباً مهماً ما كانت تتمكن من أن توضحه مؤلفات الحوليات التي عنت بالجوانب السياسية والحربية ونذر أن تشير إلى الجوانب الاقتصادية التجارية وهي جوانب بالغة الحيوية في ذلك العصر .

فقد احتوت هذه الرحلة على تناول مهم للجانب التجاري عن طريق تتبعه لحال الأسواق والمراكز التجارية التي مرّ بها في رحلته على نحو ما جعلها من أبرز الرحلات التي عالجت هذا الجانب وبخاصة في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي ؛ إلا أنه يشار هنا إلى أن البحث يمكن له أن يستقرئ صوراً متعددة من صور الحياة التجارية ، ولكن من الحق أن نقر أن المؤلف لم يعتمد هذا الطرح بعينه وإنما هي صورة من صور عديدة وقعت عليها عينه وهو ينتقل من بلد إلى آخر وفق رؤيته للحياة العامة في هذا البلد أو ذاك .

(١) الرحلة ، ص ٢٧٦ .

(٢) علي السيد علي ، مرجع سابق ، ص ٩٧ - ٩٨ .

مذكرة موجزة لسير رحلة ابن جُبَيْر الأندلسي بمواقعها وأزمانها

أولاً : خط سير الرحلة من غرناطة إلى الإسكندرية :

- بداية انطلاق الرحلة من غرناطة أكبر مدن البيرة، الخميس ٨ شوال لسنة ٥٧٨هـ (٣ فبراير ١١٨٣م) إلى جيان (مدينة بالأندلس) ، وكان الخروج منها الإثنين ١٩ شوال (١٤ فبراير) ؛ ثم في حصن القبذاق (مدينة من نواحي قرطبة بالأندلس) ؛ ثم إلى حصن قبرة (كورة من أعمال الأندلس) ؛ ثم إلى مدينة إستجة (كورة بالأندلس) ؛ ثم إلى حصن أشونة (حصن بالأندلس من نواحي إستجة) ؛ ثم إلى شَلْبَر ، فحصن أركُش ؛ ثم إلى قرية القشمة (من قرى مدينة ابن السليم) ؛ ثم إلى جزيرة طريف الإثنين ٢٦ شوال .
- وفي يوم الثلاثاء كان عبور البحر إلى قصر مصمودة (رأس شمال أفريقية المقابل للأندلس) ؛ ثم إلى سبتة يوم الأربعاء ٢٨ شوال ؛ ثم الركوب من سبتة في مركب للجنويين مقلع إلى الإسكندرية وفي يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير) تم السير من سبتة بمحاذاة بر الأندلس ومروراً بدانية .
- وفي الجمعة ٧ ذو القعدة كانت الرحلة بمقابلة بر جزيرة يابسة (جزيرة نحو الأندلس) .
- وفي السبت ٨ ذو القعدة أمام بر جزيرة مَيُورُقة .
- وفي الأحد ٩ ذو القعدة أمام جزيرة مَنُورَقة .
- وفي يوم الثلاثاء ١١ ذو القعدة (٨ مارس) كانت الرحلة بمحاذاة بر جزيرة سرداينة ؛ ثم وقفت الرحلة بمرسى بقوسمركة من بر سرداينة ظهر الأربعاء ١٢ ذو القعدة .

- وفي ليلة الثلاثاء ١٨ ذو القعدة (١٥ مارس) فارقت الرحلة بر سردانية ، وفي صباح الخميس ٢٠ ذو القعدة كانت الرحلة بمحاذاة بر جزيرة صقلية .
 - وفي عصر الجمعة ٢١ ذو القعدة فارقت الرحلة بر جزيرة صقلية إلى جزيرة أقریطش (وهي جزيرة كريت من جزر الروم) فكانت الرحلة بمحاذاة برها في ليلة الثلاثاء ٢٥ ذو القعدة (٢٢ مارس) .
 - في صبيحة يوم الأربعاء ٢٦ ذو القعدة ظهر للرحلة البر المتصل بالإسكندرية المعروف ببر الغرب بمحاذاة موضع يعرف بجزائر الحَمَام (وهو بين السلوم وطبرق) .
 - السبت ٢٩ ذو القعدة ٥٧٨هـ (٢٦ مارس ١١٨٣) وصول الإسكندرية وتمّ النزول بفندق الصفار بمقربة من الصبانة وكانت مدة المسير ٣١ يوماً .
- ثانياً : من الإسكندرية إلى عيذاب :**
- في يوم الأحد ٨ ذي الحجة (٣ أبريل) الرحيل من الإسكندرية إلى دمنهور ، وفي الإثنين ٩ ذي الحجة تمّ عبور النيل بموضع يعرف بقنا ؛ ثم إلى موضع يعرف ببرمة .
 - وفي يوم عيد النحر الثلاثاء لسنة ٥٧٨هـ شهد ابن جُبَيْر صلاة العيد بموضع يعرف بطندته وهي طنطا اليوم ؛ ثم إلى مليج ؛ ثم إلى قليوب ، ثم المنية ، ثم إلى القاهرة ، ثم إلى مصر المحروسة بعد صلاة العصر من يوم الأربعاء ١١ ذي الحجة ٦ أبريل .
 - وفي يوم الأربعاء اجتياز القسم الثاني من النيل بموضع يعرف بدجوة فتمّ النزول بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص - رضي الله عنه .

- وفي صبيحة يوم الأحد ٦ المحرم سنة ٥٧٩هـ (١ مايو ١١٨٣م) صعود النيل على الصعيد نحو قوص ، ثم إلى المنيا ، ثم منفلوط ، ثم أسيوط ، ثم أبي تيج ، ثم مدينة إخميم من مدن الصعيد على شرقي النيل ؛ ثم إلى منشأة السودان على الشط الغربي من النيل ، ثم إلى البلينة ، ثم دشنة ، ثم دندرة ، ثم مدينة قنا ، ثم إلى قفط على شرقي النيل .
 - وفي يوم الخميس ٢٤ المحرم (١٩ مايو) كان الوصول إلى قوص فكان بالمقام في النيل ثمانية عشر يوماً والدخول إلى قوص في اليوم التاسع عشر .
 - في يوم الإثنين ١٣ صفر (٦ يونيو) الخروج إلى المبرز موقع مجتمع الرحال ووزن ما يحتاج منها إلى وزن استعداداً للرحيل إلى عيذاب .
 - فكان أن انطلقت الرحلة من الحاجر مروراً بقلاع الضياع ، ثم محط اللقيطة ، ثم النزول على ماء ينسب للعبدین .
 - وفي يوم الاثنين ٢٠ صفر كان النزول بموقع دنقاش ؛ ثم العبور إلى عيذاب عبر طريق العبدین فكان الوصول إلى شاغب ضحوة الأربعاء ٢٢ صفر ، ثم كان الوصول إلى أمتان في ضحوة الأحد ٢٦ صفر ؛ ثم الرحيل من أمتان صبيحة الإثنين ٢٧ صفر فتمّ الوصول إلى موضع يعرف بمُجَاج ، ثم إلى موضع يعرف بالعشراء على مسافة يوم من عيذاب .
 - وفي يوم السبت ٢ ربيع الأول (٢٥ يونيو) كان دخول عيذاب على ساحل بحر جدة (بحر القلزم أو البحر الأحمر) فكان المقام فيها (٢٣) يوماً .
- ثالثاً : من عيذاب إلى مكة :**
- وفي يوم الإثنين ٢٥ ربيع الأول (١٨ يوليو) كان ركوب البحر من عيذاب إلى جدة والسير يوم الثلاثاء ٢٦ إلى ختام الشهر ٣٠ في جزيرة قرب بر الحجاز تعرف بجزيرة عائقة السفن .

- وفي يوم الأحد ٢٢ ربيع الآخرة (٢٤ يوليو) أُرست الرحلة في أبحر قريب من جدة.
 - وفي يوم الإثنين تمّ التوجه إلى جدة وكان النزول فيها ظهر الثلاثاء ٤ ربيع الآخر ٥٧٩هـ (٢٦ يونيو ١١٨٣م) ، وقد لاقت الرحلة من العناء ما جعلهم يعاهدون الله عز وجل ألا يكون انصرافهم عن طريق هذا البحر إلا في حال ضرورة تحول بينهم وبين سواه من الطرق ، وكان الرحيل من جدة في يوم الثلاثاء مساءً ١١ من شهر ربيع الآخر (الثاني من شهر أغسطس) ؛ ثم الوصول إلى القرين وهو منزل الحاج ومحط رحالهم ومنه يحرمون .
 - تمّ دخول مكة في الساعة الأولى من يوم الخميس ١٣ لشهر ربيع الآخر (الرابع من أغسطس) بتوفيق الله وعونه .
 - وتمّ المقام في مكة إلى يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٧٩هـ (٣ أبريل ١١٨٤م) أي ، ثمانية أشهر وثلث الشهر .
- رابعاً : من مكة حتى الكوفة :**

- وكان الرحيل من الزاهر قرب مكة في ٢٢ ذي الحجة ٥٧٩هـ (٣ أبريل ١١٨٤م) بوجهة الحج العراقي إلى الموصل وتمّ النزول ببطن مرّ ، ثم على عُسفان ، ثم إلى خُلَيْص ؛ ثم إلى وادي السمك ؛ ثم على بدر ، ثم إلى الصفراء ، ثم إلى بئر ذات العلم (الرّحاء) ؛ ثم إلى شعب علي رضي الله عنه - ؛ ثم إلى ثَرْبان فوادي العقيق بمحاذاة ذي الحليفة .
- وفي يوم الإثنين الثالث من المحرم سنة ٥٨٠هـ (١٦ أبريل ١١٨٤م) تمّ دخول المدينة المشرفة .
- وفي ضحوة السبت ٨ المحرم (٢١ أبريل) الرحيل من المدينة إلى العراق ، فكان النزول بوادي العروس ؛ ثم تمّ الصعود إلى أرض نجد فكان النزول رابع

يوم السير في ماء العُسييلة ؛ ثم بموضع يعرف بالنقرة ؛ ثم ماء القارورة في وسط أرض نجد ؛ ثم نزلت القافلة بالحاجر ؛ ثم في سميرة ، ثم إلى جبل المخروق ؛ ثم إلى وادي الكروش ، ثم إلى فيد وهو نصف الطريق من بغداد إلى مكة على المدينة أو أقل يسراً ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يوماً ؛ ثم وصلت القافلة في ضحوة يوم الثلاثاء ١٨ المحرم (الأول من مايو ١١٨٤م) إلى موضع يعرف بالأجفر ، ثم إلى البداء ، ثم إلى زرود ، ثم بالثعلبية ، ثم بركة المرجوم ، ثم نزلت القافلة بموضع يقال له الشقوق ، ثم إلى موضع يقال له التنانير ، ثم زُبالة ، ثم بالهيشمين ؛ ثم واقصة ومنها إلى الكوفة ثلاثة أيام ، ثم إلي موضع يعرف بلورة ثم إلى القرعاء ثم منارة القرون ، ثم إلى العُذيب ، ثم إلي الرُجبة ، ثم إلى قرية القادسية ، ثم إلى النجف بظهر الكوفة ثم وصلت القافلة إلى الكوفة يوم الجمعة ٢٨ المحرم ٥٨٠ هـ .

خامساً : من الكوفة حتى دمشق :

- ومن الكوفة انطلقت الرحلة إلى مدينة الحلة ومنها تمّ السير على شط الفرات إلى بغداد فتمّ المرور على قرية تسمى القنطرة ، ثم إلى قرية الفراش وهي قرى حسنة متسعة مليئة بالخانات ، ثم إلى موضع قرية تعرف بزريران ، ثم إلى أختها صرّصر حتى تمّ الوصول إلى بغداد قبيل العصر من يوم الأربعاء الثالث من شهر صفر ٥٨٠ هـ وتمّ المقام بها إلى يوم الإثنين الخامس عشر لشهر صفر (الثامن والعشرين من مايو) فكان المقام بها ثلاثة عشر يوماً .
- وفي هذا اليوم تمّ الرحيل إلى الموصل وتمّ العبور على مجموعة قرى منها : دجيل ، والحربة ، ثم حصن المعشوق وتمّ الوصول إلى تكريت في صباح الجمعة ١٩ من شهر صفر (أول من يونيو حزيران ١١٨٤م) .

- ومن تكريت تمّ المسير إلى قرية على شط دجلة تعرف بالحديدة وبعدها قرية العَفْر، ثم مرت القافلة بموضع يعرف بالقيارة من دجلة، ثم قرية العُقَيْبة وتمّ الوصول إلى الموصل يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر صفر (الخامس من يونيو).
- ومن الموصل تمّ الرحيل على دواب خاصة تمّ اشتراؤها ، وتمّ النزول بقرية الرّصد ، ثم قرية المولحة ، ثم قرية جدال قرب جبل الجودي الوارد ذكره في القرآن الكريم في قصة نوح - عليه السلام - ، ثم وصلت القافلة إلى إحدى قرى نصيبين تعرف بالكلاي ، ثم وصلت القافلة إلى نصيبين في هلال شهر ربيع الأول من سنة ٥٨٠ هـ (الثاني عشر من شهر يونيو) .
- وتمّ وصول الرحلة إلى دنيصر ، ثم إلى قرية تعرف بتل العقاب من قرى النصارى المعاهدين ، ثم إلى قرية الجسر وهي أيضاً لأناس معاهدين ومنها إلى مدينة رأس العين ، ومنها سارت القافلة إلى أن وصلت إلى مدينة حرّان مع طلوع الشمس يوم الاثنين السابع من شهر ربيع الأول (الثامن عشر ليونيو) .
- ومن حرّان اتجهت القافلة إلى مدينة منبج فنزلت بتل عبدة ، ثم بقرية البيضاء ثم وصلت الرحلة إلى الفرات ونزلت القافلة في قلعة تعرف بقلعة النجم ومنها إلى الرجة (رجة مالك بن طوق) ومنها إلى منبج فتّم وصولها في يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الأول (الثاني والعشرين من شهر يونيو).
- ومن منبج إلى بزاعة ومن بزاعة وصلت القافلة حلب ضحوة يوم الأحد الثالث عشر لشهر ربيع الأول (الرابع والعشرين من شهر يونيو) وتمّ النزول بخان يعرف بخان أبي الشكر .
- ومن حلب إلى قنسرين ، ثم إلى قرية تعرف بتل التاجر ومنه إلى مدينة حماة التي تمّ وصولها في يوم السبت التاسع عشر من شهر ربيع الأول (آخر أيام يونيو).

- ومن حماة إلى حمص في يوم الأحد ٢٠ ربيع الأول (أول شهر يوليو) وقد نزلت القافلة بخان السبيل خارج حمص ومن حمص إلى دمشق ؛ تمّ مرور القافلة بقرية المشعر ثم قرية للنصارى تعرف بالقارة ، ثم قرية النبك ، ثم في خان يقال له خان السلطان ، ثم ثنية العقاب ، ثم بموضع يقال له القُصير ومنه إلي دمشق التي تمّ وصولها يوم الخميس الرابع والعشرين لشهر ربيع الأول (الخامس من يوليو) .

سادساً : من دمشق إلى عكة :

- وتمّ المكوث بدمشق حتى يوم الخميس الخامس من شهر جمادى الآخرة (الثالث عشر من شهر سبتمبر) ، فسارت الرحلة إلى عكة ضمن قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة ، وتمّ المبيت ليلة الجمعة بدارية ومنها إلى قرية تعرف بـ بيت جن ، ثم إلى بانياس ، ثم إلى قرية المسية قرب حصن هونين الصليبي ، ثم إلى حصن تبين ، ثم في أحد ضياع عكة إلى أن وصلت الرحلة إلى عكة صبيحة يوم الثلاثاء العاشر من شهر جمادى الآخرة (الثامن عشر لشهر سبتمبر) فكان مقام القافلة بها يومين ، ثم توجهت إلى صور عن طريق حصن الزاب وقرية إسكندرونة فكان المقام بها أحد عشر يوماً ، ثم عادت الرحلة إلى عكة في البحر ووصلتها في يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر جمادى الآخرة (أول أيام شهر أكتوبر) .

سابعاً : من عكة إلى أن وصلت الرحلة إلى غرناطة :

- وتمّ رحيل القافلة في يوم الخميس العاشر من شهر رجب ٥٨٠هـ (الثامن عشر لأكتوبر سنة ١١٨٤م) على مركب كبير من عكة إلى الطريق إلى مسينة من بلاد جزيرة صقلية في ظروف جوية صعبة وضمن رحلة لا يفارقها

العناء والمخاطرة ووسط تقاذف الأمواج إلى أن وصلت الرحلة بسلام إلى إحدى جزر الرّمانيّة في يوم الثلاثاء السادس من شهر شعبان (الثالث عشر من شهر نوفمبر) ، وبعد رحيل تسعة أيام في البحر حطّ المركب أيضاً في إحدى جزر الرّمانيّة وهو رأس الجزيرة .

- وتمّ الإقلاع منه يوم الإثنين التاسع عشر لشعبان ووصلت الرحلة إلى مسينة رأس جزيرة صقلية وتمت مغادرتها ليلة الثلاثاء الثاني عشر من شهر رمضان المبارك (الثامن عشر من شهر ديسمبر) متجهة إلى صقلية مروراً بمدينة شفلودي ، ثم مدينة ثرمة ، ثم إلى صقلية ومكثت الرحلة فيها تسعة أيام ، وتمّ الرحيل من صقلية صبيحة يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان المبارك (الثامن والعشرين من شهر ديسمبر) إلى مدينة أطرابنش ، وقد تمّ المرور في أثناء الرحلة ببلدة علقمة ، ثم حصن الجمة وتوقفت الرحلة فيهما .

- وفي صبيحة الإثنين الحادي والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٨٠هـ (الخامس والعشرين من شهر مارس ١١٨٥م) تمّ الرحيل من أطرابنش نحو الأندلس مروراً بجزيرة الراهب ، ثم جزيرة سردانية ، ثم جزيرة خالطة ، ثم إلى جزيرة من بر برشلونة تسمى فرمنتيرة ومنها إلى قرطاجنة ، ثم إلى مرسية ، ثم إلى لبرالة ، ثم إلى لورقة ، ثم إلى المنصورة ، ثم إلى قنالش بسطة ، ثم إلى وادي آش وانتهت الرحلة بعد ذلك إلى غرناطة في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٥٨١هـ (الخامس والعشرين لأبريل سنة ١١٨٥م) فكان مدة الرحلة من غرناطة ذهاباً إلى غرناطة رجوعاً عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصف الشهر .

والحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

أولاً المصادر :

- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) . الأموال ؛ تحقيق محمد خليل هرأس - القاهرة ، ١٣٩٦ (١٩٧٦م) .
- التجيبي ، القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (ت ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م) . مستفاد الرحلة والاعترا ب ؛ تحقيق عبدالحفيظ منصور - ليبيا - تونس - الدار العربية للكتاب ، ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) .
- ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) . رحلة ابن جبير، المسمى "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" - بيروت : دار صادر ، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
- ابن الخطيب ، لسان الدين (٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) . الإحاطة في أخبار غرناطة ؛ تحقيق محمد عبدالله عنان - القاهرة : الشركة المصرية للطباعة والنشر ، ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) .
- ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ؛ تحقيق : إحسان عباس - بيروت : دار صادر ، (١٩٧٢م) .
- ابن الرفعة ، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الأنصاري ، (ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م) . الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان ؛ تحقيق محمد الخروف - مكة المكرمة ، ١٤٠٠هـ .
- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) . الأموال ؛ تحقيق محمد خليل هرأس - القاهرة ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) .

- أبو شامة ، شهاب الدين عبدالرحمن إسماعيل المقدسي (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) .
تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف (بالذيل على الروضين) ، نشر :
عزت العطار الحسيني . - ط ٢ . - بيروت : دار الجيل ، (١٩٧٤م) .
- العذري ؛ أحمد بن عمر بن أنس (ت ٤٧٨هـ) . نصوص من كتاب ترصيع الأخبار
وتنوع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلي جميع الممالك ؛ جمع
وتحقيق عبدالعزيز الأهواني . - مدريد : معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٦٥م .
- ابن القاضي ، أبو العباس أحمد بن القاضي المكناسي الشهير بابن القاضي
(كان حياً في حوالي منتصف القرن السابع الهجري) . جذوة الاقتباس في
ذكر من حلّ من الأعلام في مدينة فاس . - الرباط : دار المنصور للطباعة
والوراقة ، (١٩٧٣م) .
- ابن الكردبوس ، أبو مروان عبدالملك التوزري (توفي أواخر القرن السادس
الهجري) . تاريخ الأندلس ؛ تحقيق أحمد مختار العبادي . - مدريد :
معهد الدراسات الإسلامية ، (١٩٧١م) .
- المقري ، أحمد بن محمد المقري التلمساني (١٠٤١هـ / ١٦٣١م) . نفع
الطبيب من غصن الأندلس الرطيب ؛ تحقيق إحسان عباس . - بيروت : دار
صادر ، ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) .
- المقرئ ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) . المواعظ
والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ "الخطط المقرئية" . - بيروت : دار
صادر ، (د . ت) .
- المنذري ، زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم عبدالقوي (ت ٦٥٦هـ /

- ١٢٥٨م) . التكملة لوفيات النقلة ؛ تحقيق بشار عواد معروف . - ط ٢ . - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١هـ (١٩٨١م) .
- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) . لسان العرب . - القاهرة : دار المعارف (د . ت) .
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) . معجم البلدان . - ط ٢ . - بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) .
- ثانياً المراجع :
- أحمد عطية . القاموس الإسلامي ، ج ٣ . - القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) .
- الأسدي ، محمد خير الدين . موسوعة حلب المقارنة . - جامعة حلب : ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) .
- أكرم وفؤاد الساطع . الدليل الأخضر للسياحة والآثار في سورية . - دمشق : دار الفكر ، (١٩٧٥م) .
- حسنين محمد ربيع . البحر الأحمر في العصر الأيوبي ، بحث ضمن ندوة تاريخ البحر الأحمر . - القاهرة : جامعة عين شمس ، (١٩٧٩م) .
- سعيد الديوه جي ، تاريخ الموصل . - الموصل : دار الكتب بجامعة الموصل ، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) .
- سليمان عبدالغني مالكي . بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد (من منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري) . - الرياض : دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) .

- سيد عبدالعزيز سالم . التاريخ والمؤرخون العرب . - الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، (١٩٨١م) .
- شاكِر مصطفى . التاريخ والمؤرخون العرب . - ط ٢ . - بيروت : دار العلم للملايين (١٩٧٩م) .
- عبدالقدوس الأنصاري . مع ابن جُبَيْر في رحلته . - القاهرة : المطبعة العربية الحديثة ، ١٣٩٦ هـ ، (١٩٧٦م) .
- عبدالله بن محمد السيف . الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي . - الرياض ، ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) .
- علي السيد علي . العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين . - القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٤١٧ هـ (١٩٩٦م) .
- عواطف محمد يوسف نواب . الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين - دراسة تحليلية مقارنة . - الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٧ هـ (١٩٩٦م) .
- فالتر هنتس . المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها من النظام المتري ؛ ترجمة : كامل العسلي . - عمان ، (١٩٧٠م) .
- محمد عبدالله عنان . دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي . - ط ٢ . - القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩م) .
- محمد مؤنس عوض . الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية . - القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، (١٩٩٥م) .

- ناصر عبدالرزاق موافي . الرحلة في الأدب العربي ، "حتى نهاية القرن الرابع الهجري" . - القاهرة : دار النشر للجامعات المصرية ، ١٤١٥ هـ (١٩٩٥ م) .
- نوال محمد عبدالله . العمران في الشرق العربي في القرن السادس الهجري : قراءة في رحلة ابن جُبَيْر ، بحث ضمن بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، المجلد الثالث . - مركز البحوث : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) .
- كراتشكوفسكي ، أغناطيوس . تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، القسم الأول؛ نقله إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم . - القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٨٣ هـ / (١٩٦٣ م) .